وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعـــــة محمد بوضياف المسيـلة

جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

كـلـيـة الآداب واللغات

قسم اللغـة والأدب العربي

الرقم التسلسلي:.....

رقم التسجيل:13/MD12/088

النزعة الصوفية في الشعر العربي الحديث الأمير عبد القادر "أنموذجا"

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر

الميدان:اللغة والأدب العربي فرع:الأدب العربي تخصص:أدب عربي حديث

إعداد الطالبة :
- ميزي حليمة

إشراف الأستاذ :
د/ دقي جلول

تاريخ المناقشة: 2015/05/25

أمام لجنة المناقشة:
- الدكتور : جلول دقي .....مشرفا ومقررا
- الأستاذ : زكري بحوص..... رئيسا
- الأستاذ : طيفور الشاذلي بن جديد....ممحنا

السنة الجامعية:2014-2015

شكر وعرفان

"وَلَئِنْ شَكَرْتُم لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيد " .

صدق مولانا العظيم

نشكر الله تعالى ونحمده على التوفيق .

وأتقدم بالشكر الجزيل والتقدير إلى .

الأستاذ الفاضل المشرف دقي جلول

وأتقدم بالشكر والعرفان إلى لجنة المناقشة .

وكل من ساعدني في انجاز هذا البحث من قريب أو بعيد

وأسأل الله أن يجزي الجميع خير الجزاء .

إهداء

إلى والدي الكريمين

إلى إخوتي

إلى أساتذتي إلى زملائي وزميلاتي وإلى كل الأصدقاء أهدي هذا البحث المتواضع راجية من المولى عز وجل أن يجد القبول والنجاح .

مقدمة

إن الحمد لله،نحمده ونستعينه والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبد الله ورسوله،صاحب الجهاد الأعظم والمنهج القويم في الرقي الروحي،وعلى أله وصحبه ومن سلك سبيله

إن التصوف أمر زاهد على الزهد،ولا يكفي أن يكون المرء زاهدا حتى يوصف بالصوفي،كما نبه عنه الباحثون من الصوفية وغيرهم،وما من شك في أن الصوفي لايتعلق قلبه بالدنيا،بيد أن الزهد في الدنيا شيء،والتصوف شيء أخر،فالتصوف مذهب معروف يزيد على الزهد،ويدل على الفرق بينهما .

والسؤال:كيف عبر الشاعر العربي عن تصوفه؟

وكيف كان بناء نصه الشعري ؟

وهل كان تصوفه ايجابيا أنتج إبداعا مميزا ؟أم أن تصوفه كان سلبيا جعله يتكلم لغة لا يفهمها أحد غيره؟

وقد كان هدفي من اختيار هدا البحث هو التعرف على الأعمال التي قدمها الأمير خاصة التصوف، وإعجابي بهده الشخصية العظيمة ،فقد كان العنوان موسوم كالأتي:النزعة الصوفية في الشعر العربي الحديث.

واتبعت في بحثي على الخطة التالية :

فتطرقت في الفصل الأول لدراسة ماهية التصوف وتناولت فيه أولا: اشتقاق التصوف وتعريفه ،ثانيا موقف العلماء من التصوف ،ثالثا ظهور التصوف ونشأته،رابعا أنواع التصوف،خامسا اتجاهات التصوف،سادسا الشعر الصوفي بين مفهومي الانفصال والتوحد.

أما الفصل الثاني فتطرقت إلى الأمير عبد القادر وتصوفه وتناولت فيه أولا:نشأة الأمير عبد القادر،ثانيا أراء الأمير عبد القادر،ثالثا أثار الأمير عبد القادر الشعرية والنثرية،رابعا الأمير عبد القادر وتصوفه .

أما الفصل الثالث فتناولت فيه ملامح الشخصية الصوفية للأمير عبد القادر من خلال بعض أشعاره وتطرقت فيه أولا:إلى المدح الصوفي،ثانيا الأبعاد الفنية في شعر الأمير عبد القادر وفيه اللغة الشعرية و الصورة الشعرية والموسيقى الداخلية والخارجية.

ولقد اتبعت في بحثي المنهج الوصفي التحليلي،ولكن لا أحد ينكر قصور المنهج الواحد عن اللالمام الكامل بجوانب البحث .

وقد اعتمدت على بعض المصادر والمراجع وكان من بينها:الرسالة القشيرية لأبو القاسم القشيري والديوان للأمير عبد القادر وعوارف المعارف للسهر وردي و مجموع الفتاوى لابن تيمة والأمير عبد القادرو أدبه لعبد الرزاق بن السبع.

ولست أنا أول من طرح هدا الموضوع،لأن هناك دراسات قبلي.

ولا يخلو أي بحث من المصاعب ولعل أكبر مشكلة وا جهتني في بحثي قلة المصادر والمراجع ونقص التنظيم وضيق الوقت.

وفي الأخير أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ المشرف الذي لم يبخل عليا بتوجيهاته وأتقدم بشكري إلى اللجنة المناقشة.

وأرجو من الله أنني وفقت ولو بقليل .

الفصل الأول :ماهية التصوف

1– اشتقاق التصوف وتعريفه

2– موقف العلماء من التصوف

3– ظهور التصوف ونشأته

4– أنواع التصوف

4-1- التصوف السني

4-2- التصوف الفلسفي

5– اتجاهات التصوف

5-1- الاتجاه الشرعي الطرائقي

5-2- الاتجاه النظري المعارض

6– الشعر الصوفي بين مفهومي الانفصال والتوحد

6-1- مفهوم الانفصال

6-2- مفهوم التوحد

أولا: ماهية التصوف

1- اشتقاق التصوف وتعريفه :

تعددت الأقوال في اشتقاق "التصوف" ونسبته، فقول بنسبته إلى الصفاء، وقول بنسبته إلى رجل يدعى صوفة، واسمه الغوث بن مر، وقول بنسبته إلى أهل الصفة، وقول بنسبته إلى الصف الأول، وقول بنسبته إلى صوفاته –نبتة صغيرة– وقول باشتقاقه من كلمة "سوفيا" اليونانية، وقول نسبته إلى الصفة بنسبته إلى الصوف[1].

والراجح من هذه الأقوال نسبة التصوف إلى الصوف، لما فيه من موافقة اللغة، ولأنه يوافق حال القوم الأوائل من التشقق والزهد والانقطاع عن الدنيا، وإن كانوا لا يختصون بلبس الصوف .

وهذا ما رجحه أكثر المحققين، من الصوفية كالطوسي ، والكلاباذي ،والسهروردي ، ومن غير الصوفية نجد ابن تيمة وابن ويجمع أكثر ذلك الكلاباذي حيث قال :"وجميع المعاني كلها من التخلي عن الدنيا، وعزوف النفس عنها، وترك الأوطان ولزوم الأسفار، ومنع النفوس حظوظها، وصفاء المعاملات، وصفوة، الأسرار، وانشراح الصدور وصفة السياق..."[2]

خلدون ، وكذا من المعاصرين، والمستشرقين الذين اعتنوا بالبحث في التصوف .

أما عن تعريف التصوف، فقد تعددت أقوال الصوفية في تعريفه، وكل يعبر حسب ما يظهر له من معاينة، ثم نقل من أقوال القوم في تعريف التصوف، وفيها ما يقبل، وفيها ما عليه مأخذ، مثل : الترسيخ لفكرة علم الباطن، ولعل في كلام الكلاباذي المتقدم إشارة إليه بقوله:"وصفوة الأسرار".

ويذكر السهروردي: البغدادي في عوا رفه أنه رغم الاختلاف في تعريف التصوف فإن هناك قاسما مشتركا، بوجوده يكون التصرف، فالصوفي عنده الذي يطهر القلب من شوائب النفس على الدوام، ولا يكون ذلك عنده إلا بدوام افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار كلها تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها، أدركها المرء ببصيرته النافذة وفر منها إلى ربه، فهو قائم بربه على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه قال تعالى:"يا أيها الذين أمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط" المائدة 8 ، وهذه القوامة لله على النفس هي التحقق في موضوع التصوف.[3]

---

[1]-أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية ،تح: عبد الحليم محمود، محمود الشريف، دار الشعب ،القاهرة، ص 464.

[2]-الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتاب العلمي،بيروت، ط1، 1413هـ، ص 9-17.

[3]-السهر وردي: عوارف المعارف، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1403هـ ،ص 58

قال عمرو بن عثمان المكي: "التصوف أن يكون العبد في كل وقت مشغولا بما هو أولى في ذلك الوقت" [1].

وقيل لأبي الحسين أحمد بن النوري : من الصوفي؟ فقال: "من سمع السماع، وآثر بالأسباب" .[2]

وقال إمام الطائفة في عصره الجنيد بن :"التصوف يمتلك الحق عنك، ويحييك به".

وقال رويم بن أحمد : "التصوف استرسال النفس مع الله تعالى، على ما يريد " .[3]

وقال أبو علي الدقاق : "أحسن ما قيل في هذا الباب، قول من قال: هذا طريق لا يصلح إلا لأقوام قد كنس الله بأرواحهم المزابل ولهذا قال يوما : لو لم يكن للفقير إلا روح، فعرضها على كلاب هذا الباب، لم ينظر إليها كلب " [4]

2- موقف العلماء من التصوف:

تنازع الناس واختلفوا في موقفهم من التصوف، بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال رحمه الله :"فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا أنهم مبتدعون خارجون عن السنة، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام .

وطائفة غلت فيهم، وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء .وكلا طرفي هذه الأمور ذميم .

والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه، وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة" [5] .

وبين "ابن القيم" ت 715 هـ هذا المعنى من افتراق الناس وتنازعهم في أمر التصوف، وذلك عند كلامه على قول بعض الصوفية أن تعذيبه بالهجرات أحب إليه من طيب الوصال، فقال رحمه الله :"هذا هو نحوه من

---

[1]-أبو نصر سراج الطوسي: اللمع،تح:عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة،مصر،1380هـ، ص45.

[2]-المرجع نفسه، ص 46.

[3]-المرجع نفسه،ص45.

[4]-القشيري: الرسالة القشيرية، ص 468 .

[5]-ابن تيمة: مجموع الفتاوى،(د.ط) ،ج 11 ،ص: 17-18.

الشطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات ويستغرقها كمال الصحة والصدق وقوة الإخلاص وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة بشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه الشطحات أو جبن فتنة على طائفتين من الناس، إحداهما: حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة ولطف نفوسهم وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات وأنكروها غاية الإنكار وأساءوا الظن بهم مطلقا.وهذا عدوان وإسراف فلو كان كل من أخطأ أو غلط أو ترك جملة وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطلت معالمها.

والطائفة الثانية: حجبوا بما رأوه من محاسن القوم وصفاء قلوبهم وصحة عزائمهم وحسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم ونقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها واستظهروا بها في سلوكهم وهؤلاء أيضا معتدون مفرطون .

والطائفة الثالثة: –وهم أهل العدل والإنصاف– الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قبلوا ما يقبل وردوا ما يرد .

وهذه الشطحات ونحوها هي التي حذر منها سادات القوم وذموا عاقبتها وتبرؤوا منها ..." [1] .

3– ظهور التصوف ونشأته:

أرجح الأقوال في زمن ظهور التصوف أنه كان في القرن الثاني الهجري، لا قبله وقد اختار هذا جمع من المحققين، منهم : القشيري ت 465هـ ، وابن الجوزي [2] ت 597 هـ ، وابن تيمية ، وقد كان أول ظهور التصوف بالبصرة، على ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال :" فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بن دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زايد ، وعبد الواحد من أصحاب الحسن وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، ولهذا كان يقال: فقه كوفي وعبادة بصرية"[3].

[1]–ابن القيم: مدارج السالكين، تح: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي. بيروت، ط2، 1393هـ ، ص 39– 40.

[2]–ابن الجوزي: تلبيس إبليس، تح : أحمد بن عثمان المزيد، دار الوطن،الرياض، ط1، 1423هـ، ص 938.

[3]-ابن تيمة:مجموع الفتاوى،ص29. ينظر في هذه الأقوال :رسالة التصوف في القرن الرابع الهجري،ص40.

وما التغيير الذي وقع من بعض المتصوفة، ووصولهم إلى أشنع درجات الانحراف والبعد عن دين الله، إلا شاهد على الحكمة البالغة من رد البدع المحدثة وسد كل طريق يوصل ليها، فإنها تتجارى بأصحابها، حتى توردهم المهالك.

إن بدايات التصوف ترجح –على أرجح الأقوال– إلى أواخر القرن الثاني من الهجرة، حيث ظهر نوع من الزهد، تميز عما كان عليه زهد السباقين من الصحابة والتابعين، قبلهم زهد إمامهم، حيث برزت في أواخر القرن الثاني ظاهرة اجتماعية منظمة، ووجدت لها دور خاص، وبدأت مقدمات اتجاه فكري، مهد إلى ظهور البذور الأولى من التصوف .

فالتصوف أمر زائد على الزهد، ولا يكفي أن يكون المرء زاهدا حتى يوصف بالصوفي، كما نبه على ذلك الباحثون من الصوفية وغيرهم، قال السهر وردي :"التصوف غير الفقر، والزهد غير الفقر، والتصوف غير الزهد، فالتصوف اسم جامع لمعاني الفقر ومعاني الزهد، مع زيد أوصاف وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفيا، وإن كان زاهدا أو فقيرا" [1] .

ويقول د عبد الحليم محمود:" وما من شك في أن الصوفي : لا يتعلق قلبه بالدنيا، يبدو أن الزهد في الدنيا شيء، والتصوف شيء آخر، ولا يلزم من كون الصوفي زاهدا، أن يكون التصوف هو الزهد.على أن هناك تفرقة حاسمة، بين زهد الصوفي وعبادته، وبين زهد غير الصوفي وعبادته.وهذه التفرقة إنما هي في الهدف، أكثر منها في الأسلوب والمنهج ...والتصوف إذا : ليس خلقا فحسب، ولا زهدا فقط، ولا عبادة لا غير، وهو إن كان متضمنا للخلق الكريم، والزهد الرفيع، والعبادة المتجردة، فإنه مع كل ذلك، شيء آخر" [2] .

وفي نفس المعنى يقول ابن الجوزي ت 597 هـ : "وجاء أبو نعيم الأصفهاني ت 430هـ ، فصف لهم كتاب الحلية، وذكر في حدود التصوف أشياء منكرة قبيحة، ولم يستح أن يذكر في الصوفية أبا بكر وعمر وعثمان وعليا، وسادات الصحابة، رضي الله عنهم، فذكر عنهم فيه العجب، وذكر منهم شريحا القاضي والحسن البصري وسفيان الخوري وأحمد بن حنبل...وجعلهم من الصوفية بأن أشار إلى أنهم من الزهاد، فالتصوف مذهب معروف، يزيد على الزهد، ويدل على الفرق بينهما: أن الزهد لم يذمه أحد، وقد ذموا التصوف " [3] .

---

[1]–السهر وردي : عوارف المعارف، ص 54.

[2]–أبحاث في التصوف مطبوع مع المنقذ من الضلال. دار الكتب الحديثة. مصر،ط6 ،1388، ص 172. ينظر : مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص 90.

[3]–ابن الجوزي: تلبيس ابليس، تح: السيد الجميلي، دار الكتاب العربي. بيروت، ط1 ،1405، ص 204.

وقد جاء في كلام عدد من المتصوفة تعريف الزهد بما يخالف المعنى الشرعي، فمن ذلك تفسيرهم الزهد بأنه القعود عن العمل الدنيوي مطلقا، وإن كان نافعا صالحا، كما جاء عن أبي علي الدقاق ت 406هـ قوله:" الزهد : أن تترك الدنيا كما هي، لا تقول : ابني بها رباطا، أو أعمر مسجدا " [1] .

أو يفسرون الزهد بأنه ترك الدنيا بالكلية، والانقطاع عن مباحاتها، بل وتحريمها، أو على الأقل، وصفها بالكرامة .

وقال معروف الكرخي ت 200هـ :" لو كان من حب الدنيا ذرة في قلوب العارفين، لما صحت لهم سجدة واحدة " [2] .

قال أبو حفص ت 207هـ :" الزهد لا يكون إلا في حلال، ولا حلال في الدنيا، فلا زهدا" [3] .

وقال أبو سليمان الداراني ت 215 هـ :" ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا: من طلب معاشا، أو تزوج امرأة، أو كنت الحديث أو قال: ما رأيت أحدا من أصحابنا تزوج، فثبت على مرتبته" [4] .

والأقوال عن الصوفية في التحذير من الزواج كثيرة، بل أورد بعضهم حديثا النبي عليه الصلاة والسلام: إذا كان بعد المائتين، أبيحت العزوبة لأمتي [5] .

والأحاديث في مدح البصري، ومن تبعه من المتصوفة، وبني دويرة للصوفية، وهي أول من بني في الإسلام، وكان عبد الرحمن بن مهدي وغيره يسمونهم الفقرية، وكانوا يجتمعون في دويرة لهم، وصار لهؤلاء من الكلام المحدث طريق يتدينون به، مع تمسكهم بغالب الدين، ولهؤلاء من التعبد المحدث طريق يتمسكون به، مع تمسكهم بغالب التعبد المشروع، وصار لهؤلاء حال من السماع والصوت حتى أن أحدهم يموت أو يعشى عليه... [6].

يظهر من هذا أن التصوف بدأ زهدا وعبادا أو نسكا، ثم بدأت المغالاة والتجاوزات والتميز عن عموم المسلمين بطريقة خاصة .

وفي أواخر القرن الثاني تميز الصوفية بالاهتمام بالسماع، وما تلاه من التواجد والرفض، وقد جاء إنكار هذا عن أئمة الإسلام المتقدمين، كالإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد رحمهم الله .

---

[1]-أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية، ص : 219.

[2]-الشعراني: الطبقات الكبرى، تح : خليل المنصور، دار الكتب العلمية ،بيروت،(د.ط)،1997، ص 106.

[3]-القشيري: الرسالة القشيرية، ص 27

[4]-السهر وردي: عوارف المعارف،ص 165.

[5]-المرجع نفسه، ص 166.

[6]-ابن تيمة: مجموع الفتاوى،ص358.

قال ابن الجوزي ت 597هـ رحمه الله :" والتصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرفض، فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام، لما يظهرونه من التزهد، ومال إليهم طلاب الدنيا، لما يرون عندهم من الراحة " [1] .

قال الشيخ الإسلام بن تيمة ت 728 هـ عن سماع الصوفية : "ولم يحضره مثل إبراهيم بن أدهم ولا الفضيل بن عياض ولا معروف الكرخي ولا السري السقطي ولا أبو سليمان الداراني ولا مثل الشيخ عبد القادر والشيخ عدي والشيخ أبي البيان ولا الشيخ حياة وغيرهم، بل في كلام طائفة من هؤلاء كالشيخ عبد القادر وغيره النهي عنه وكذلك أعيان المشايخ .

وقد حضره من المشايخ طائفة، وشرطوا له المكان والإمكان والخلان والشيخ الذي يحرس من الشيطان، وأكثر الذين حضروه من المشايخ الموثوق بهم، رجعوا عنه في آخر عمرهم كالجنيد، فإنه حضره وهو شاب وتركهم في آخر عمره، وكان يقول : من تكلف السماع فتن به، ومن صادقه السماع استراح به، فقد ذم من يجتمع له، ورخص فيمن يصادقه من غير قصد ولا اعتماد للجلوس له..." [2].

وفي أوائل القرن الثالث من الهجرة –على وجه التقريب– ظهر كلام بعض الصوفية في مصطلحات اختصوا بها، كالوقت، والفناء والغيبة والحضور، والقبض والبسط، والأحوال والمقامات، والذوق والكشف، والمعرفة ومناهجها، وأصبحت لهم لغة رمزية خاصة لا يشاركهم فيها سواهم [3] .

قال أبو نصر السراج الطوسي ت 378 هـ : "ولهم في حقيقة التوحيد لسان آخر، وهو لسان الواجدين، وإشارتهم في ذلك تبعد عن الفهم، ونحن نذكر من ذلك طرفا، كما يمكن شرحه، وهذا العلم أكثره إشارة لا تخفي على من يكون أهله، فإذا صار إلى الشرح والعبارة: يخفى ويذهب رونقه، وإنما دعاني إلى شرحه لأني وضعته في تشييع في غير أهلها، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف، أو مجلوبة بضرب تصرف، بل هي معاني أودعها الله في قلوب قوم، واستخلص بحقائقها أسرار أقوام" [4] .

---

[1]–ابن الجوزي: تلبيس ابليس، ص 199.

[2]–ابن تيمة: مجموع الفتاوى، ص: 592– 593.

إبراهيم الدسوقي شتا: التصوف عند الفرس، كلية آداب القاهرة، دار المعارف، ص: 29.

[3]–ابن خلدون: شفاء السائل وتهذيب المسائل، تح: محمد مطيع الحافظ، دار الفكر،دمشق ، ط1 ،1417هـ، ص 88.

[4]– أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية، ص 130.

كما ظهر في القرن الثالث الهجري: التدوين في التصوف، ومن أقدم من ألف فيه: الحراث المحاسبي ت 243هـ ،والخراز ت 277هـ ، والحكيم الترمذي ت 319هـ ، والجنيد ت 297هـ ، وهم جميعا من صوفية القرن الثالث.

وقد جاء عن الإمام أحمد بن حنبل التحذير من صحبة الحارث المحاسبي، والنهي عن مطالعة كتبه، وتكلم الحافظ بن كثير عن سبب ذلك فقال: "قال البيهقي: يحتمل أنه كره له صحبتهم لأن الحارث بن أسد، وإن كان زاهدا، فإنه كان عنده شيء من علم الكلام، وكان أحمد بن حنبل يكره ذلك، أو كره له صحبتهم من أجل أنه لا يطبق سلوك طريقتهم وما هم عليه من الزهد والردع، فقلت: بل إنما كره ذلك لأن في كلامهم من التقشف وشدة السلوك التي لم يرد بها الشرع، والتدقيق والمحاسبة الدقيقة البليغة ما لم يأت بها أمر، ولهذا لما وقف أبو زرعة الرازي على كتاب الحارث المسمى بالرعاية قال: هذا بدعة، ثم قال للرجل الذي جاء بالكتاب: "عليك بما كان عليه مالك والثوري والأوزاعي والليث، ودع عنك هذا فإنه بدعة" [1] .

يرى ابن خلدون أن هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة [2] ، أما الطوسي فيرى غير ذلك ويرد على كل من يقول أنه لم يسمع بذكر الصوفية في أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام أن صحابة رسول الله، لم ينسبوا لهذا الاسم لأن الصحبة مع رسول الله أشرف من أية صحبة أخرى ألا ترى أئمة الزهاد والعباد المتوكلين والفقراء والراضين والصابرين وغير ذلك، هم أصحاب رسول الله، وهذا هو مطلب المتصوف أن يتصف بهذه الأحوال ويرتقي في تلك المقامات وقد كان هناك من صحابة رسول الله من آثر العزلة وخرج من الصراع الدائر بين علي بن أبي طالب –كرم الله وجهه– ومعاوية بن أبي سفيان وكان من بينهم سعد بن أبي وقاص –رحمه الله– ممن اعتزل أيام الفتنة فلم يكن واحد من الفريقين فأرادوه على الخروج فأبى [3] وممن اعتزل أيضا محمد الأنصاري، وعبد الله بن عمر الخطاب في عدة كثيرة من الصحابة [4] .

فهم أحبوا البقاء بعيدا لأنهم رأوا أن الصراع يلهيهم ويبعدهم، وهذا ما جعلهم يغيرون عن دنيا الناس فمن كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ويتفرغ لاستخراج الحكمة [5] والتصوف في أول أمره كان نقيا صافيا ولكن سرعان ما يكون بالفلسفة بعد أن اختلطت الثقافة الإسلامية لغيرها من الثقافات .

---

[1] –ابن كثير: البداية والنهاية، تح: علي شبري، دار أحياء التراث العربي، ط1. (1408هـ)، ص 363.

[2] –ابن خلدون : المقدمة،دار الشعب ،مصر ،(د.ط) ،(د.ت) ، ص 462.

[3] –أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي: العزلة، تح: محمد السواس، دار ابن كثير، بيروت– لبنان، ط2، 1990، ص 08.

[4] –المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

[5] –المرجع السابق، ص 17.

يعد القرنان الثالث والرابع الهجريين العصر الذهبي للتصوف، والذي ظهر فيه بأوضح صوره، ويتضح هذا من خلال ظهور الطرق وكثرة التصايف التي أصبحت مرجعا لأجيال التصوف في القرون الثانية، مثل القرن الخامس الهجري، والذي يعتبر امتدادا لأفكار القرون السابقة له [1] .

ومن أشهر رموز التصوف في هذه المرحلة : الحارث المحاسبي ت 243هـ ، وذو النون المصري ت 241هـ ، وأبو يزيد البسطامي [2] ت 261هـ ، والجنيد الملقب بشيخ الطائفة ت 297هـ ، والحلاج ت 309هـ ، وأبو طالب المكي 386هـ ، وعبد الرحمان السلمي ت 412هـ ، وأبو نعيم الأصفهاني ت 430هـ ، وعلي الهجويري ت 470هـ وغيرهم ،وكذلك الغزالي ت 505هـ والذي تزعم مدرسة الكشف في هذه الحقبة من الزمن [3] .

وقد شهد القرنان السادس والسابع الهجريين ظهور الطرق الصوفي الأكثر تنظيما وانتشارا، مثل الطريقة القادرية ، والطريقة الرفاعية ، ثم تتابعت الطرق في العالم الإسلامي خلال القرن السابع الهجري، فظهرت الطريقة الشاذلية ، والطريقة الأحمدية ، والطريقة البرهامية أو الدسوقية ،وأبرز ما تميز به القرن السابع الهجري: ظهور متصوفة خلطوا الفلسفة بالتصوف، كالسهر وردي المقتول،"إن تلفيق الفلسفة الأفلوطينية بالعلوم الإسلامية جاء نتيجة جهود متتابعة، ولا يمكن إنكار أثر الغزالي في ذلك، خاصة في مؤلفيه:"الرسالة اللدنية" "ومشكاة الأنوار" [*] اللتين أثرتا مباشرة في أعمال السهر وردي.ويعد السهر وردي المقتول صاحب النصيب الأكبر في مزج الحكمة اليونانية بالدين الإسلامي، خاصة في رسائله التي كتبها بالفارسية ...وقد جمع في فكرة كل روافد الفكر الفارسي، كما كان يعتبر الذوق وسيلة المعرفة" [4]

ومن الأسماء المهمة في هذا الجانب: ابن عربي الذي اكتملت على يديه فكرة وحدة الوجود، وابن سبعين ، وجماعة من شعراء الفرس، أمثال : فريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومي ، الذين لا يمكن فهم أشعارهما دون فهم تاسوعات أفلوطين .

ويلحق هنا أيضا : ابن الفارض ،ولذا تعد هذه المرحلة من أخطر مراحل التصوف .

---

[1] -عبد الحكيم عبد الغني قاسم: المذاهب الصوفية ومدارسها، مكتبة مدبولي ،القاهرة، ط2 ،1999، ص 27

[2] -عرفان عبد الحميد فتاح: أبو يزيد البسطامي وفكرة الفناء في نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل. بيروت، ط1 ،1413هـ، ص198-209.

[3] -محمد بن أحمد الجوير: الردود العلمية في دحض حجج وأباطيل الصوفية، مكتبة الرشد ،(د.ط)،1424هـ ،ص53.

[*] -الرسالة اللدنية "موجودة ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي. نشر المكتبة التوفيقية ، مصر. "ومشكاة الأنوار "مطبوعة وحدها بمطبعة الصدق مصر (1323هـ)، وموجودة بموقع مكتبة المصطفى .

[4] -ينظر: التصوف عند الفرس، ص: 8-9 .

ولقد ظهرت في القرن الثامن الطريقة التقشبندنية ، ثم ظهرت بعدها الطريقة التجانية ، وتفرعت بعدها الطرق إلى طرق فرعية انتشرت في أرجاء العالم الإسلامي .

أما القرون التالية: فتعتبر تفريعات وشروحات الأشهر رموز التصوف السابقة .

ولا شك أن هذه الانحرافات الصوفية لم تكن إسلامية المصدر، إنما كانت نتيجة الاحتكاك بالثقافات والأديان الأخرى، مع التأثر بحركة الترجمة للكتب اليونانية .

4- أنواع التصوف :

التصوف نوعان : تصوف سني وتصوف فلسفي

4-1- التصوف السني: فمن كلمة السني تبين لنا أن أصحاب هذا الاتجاه كان الالتزام بالسنة هو ضابطهم وواقيهم من الانقياد إلى الشطح وقد مر التصوف بثلاث مراحل هي:

أ- المرحلة الأولى : كانت خلال القرنين الأول [1] والثاني للهجرة، وتميزت بمظهرين : مظهر بارز تمثل في ترك مظاهر الدنيا [2] وزينتها، ومظهر باطن تمثل في مراقبة أفعال القلب الذي هو مصدر الأفعال ومبدأها وغرضه النجاة من عقاب الله تعالى .

ب- المرحلة الثانية: في هذه المرحلة تطور التصوف السني فأصبح منتحلوه يهدفون إلى الوصول لنفس لا يصدر عنها سوى أفعال الخير، مؤدبة بآداب القرآن والسنة النبوية فعمدوا إلى تقويم النفس وتهذيبها عن طريق الرياضة وذلك بالصيام المتواصل وقيام الليل والتهجد حتى يكون الفعل والترك عند صاحبه أمرا طبيعيا، والهدف من تقويم النفس بهذه الطريقة هو الوصول إلى مراتب الأنبياء والصديقين والصالحين.

ت- المرحلة الثالثة: أصبح الصوفي خلال القرن الخامس الهجري ينزع إلى الكشف عن عالم الغيب، كمعرفة صفات الله، ورؤية العرش والكرسي، والوحي والملائكة، ولا بد من الاقتداء بشيخ مارس أنواع المجاهدات، وانكشف له عالم الغيب، بحيث يهتدي المريد [3] المقبل على حالة الكشف بأفعاله وأقواله، ثم يلتزم الخلوة في مكان بعيد عن الخلق مع ممارسة أنواع من المجاهدات كالصمت بترك الكلام، والجوع ومواصلة الصيام والسهر والتهجد حتى تخمد كل الأحاسيس والقوى، ثم يعين الشيخ للمريد ذكره يشغل به لسانه وقلبه، فيواظب عليه المريد حتى تسقط حركة اللسان، وتبقى صورة اللفظ في القلب ويبقى على ذلك حتى تمحى صورة اللفظ من القلب ويبقى

[1]-السهر وردي: عوارف المعارف، ص 60- 61.

[2]-أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية، ص 218.

[3]-أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية ص 621.

معناه ملازما حاضرا وفي هذه الحالة تصل المجاهدة بصاحبها إلى فراغ القلب عما سواه الله، فيقع الحذر الشديد من خواطر الدنيا ووساوس الشيطان [1] فيجتهد في مجاهدته لذلك فإن نجا من هذه المثبطات انكشف له سر الملكوت، فيعرض المواهب الإلهية، والعلوم اللدنية، فيدرك حقائق الوجود، ووقائعها قبل حدوثها ويصبح من أهل الكرامات.

والمتصوف السني خلال المجاهدات التي يمر عليها تطرأ على نفسه صفات يتكون بها قلبه كالسرور والحزن، والشوق والانزعاج، والابتهاج والطرب، وغيرها من الأحوال .

4-2- التصوف الفلسفي:

ظهرت عدة نظريات صوفية فلسفية في القرن الثالث الهجري، عندما أصبح بعض المتصوفة يهتمون بعلوم المكاشفة التماسا لمعرفة الله، واكتساب علومه، والوقوف على حكمته وأسراره، والاطلاع على حقائق الموجودات، فكان ذو النون المصري أول من أدخل الغنوصية (Gnosticisme من الكلمة اليونانية غنوصيص "gnosis" ومعناها "علم " أو "معرفة") في التصوف الإسلامي ثم جاء أبو زيد البسطامي بنظرية الفناء عن طريق نظرية الفناء، فتوصل بعض المتصوفة إلى القول بنظرية الحلول والاتحاد، التي تزعمها الحلاج ، وغيرها من النظريات التي طرأت على الفكر الصوفي .

5- اتجاهات التصوف:

نميز بين اتجاهين داخل حركة التصوف ذاتها [2] :

5-1- الاتجاه الشرعي الطرائقي: الذي لقي الرعاية والتشجيع، لكونه يسهم في تعميق السائد الفكري والإيديولوجي للدولة، حتى أن الأشاعرة كانوا لا يوافقون بعض أهل السنة من الحنابلة في تعرضهم له أو الانتقاص من جانبه قال السبكي:"ومن الفقهاء فرقة منكسة تجري على ظواهر الشرع، وتحسن امتثال أوامر الله تعالى واجتناب مناهيه، إلا أنها تهزأ بالفقراء وأهل التصوف، ولا تعتقد فيهم شيئا...والواجب تسليم أحوال القوم إليهم.وأنا لا نؤاخذ أحد إلا بجريمة ظاهرة.ومتى أمكننا كلامهم، وحمله على محمل حسن، لا نعدل عن ذلك، لا سيما من عرفناه منهم بالخير ولزوم الطريقة." [3]

[1]-ابن خلدون: شفاء السائل وتهذيب المسائل، ص 85- 86.

[2]-غولد سيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام،(د.ط) ،ص 148.

[3]-ينظر: معيد النعم ومبيد النقم، ص 88.

فهؤلاء، إذا هم خاصة أهل الدين، الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، فيجوز التعرض لهم لأن "طريقهم، كما قال شيخ الطائفة أبو القاسم الجنيد [1] رحمه الله: طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة".

لقد كان طبيعيا أن تمد السياسة الطرق الصوفية هذه بأسباب النمو والانتشار، لكونها ذات طابع سلوكي، قوامه الأعراض عن الحياة الدنيا والزهد في متاعها [2] .ولهذا السبب شارك السلاطين في الاعتقاد بممثلي الطرق من التصوف، وشملهم بعطفهم، فشيدوا لهم الزوايا والربط والخوانق [3] ، وحسبوا عليها الأوقاف السخية، وكان بعض الأمراء يفتتحون هذه الأماكن بعد تشييدها في حفل كبير يحضره رجال الدين والقضاء ومشايخ الصوفية، فازدهرت في هذا العصر، الطرق الصوفية التي مثلت الاعتدال في انضوائها تحت لواء الشريعة، كالطريقة الرفاعية، والطريقة الأحمدية، والطريقة البرهامية والطريقة الشاذلية [4] ، وكان شيوخ هذه الطرق أصحاب نفوذ، كما كانوا موضع تبجيل واحترام، وقد تتلمذ على بعضهم كبار شخصيات العصر، فقد ذكر السبكي، عندما ترجم لان عطاء الله السكندري، أنه كان أستاذا لوالده في التصوف.

وبقدر ما كانت تبتعد هذه لمدارس عن التصوف الفلسفي، كانت تقترب من تصوف الغزالي المتقيد بالكتاب والسنة، وتلاقي القبول والتأييد، الذين اقتضيا أن يصدر الأمر بتسيير ابن تيمة إلى الشام، عندما اشتكى جماعة من المتصوفة في مصر، من تعرضه لهم ومن كلامه في حقهم .

5-2- الاتجاه النظري المعارض:

في مقابل النهج الصوفي الشرعي، كان نشاط النهج المعارض، الذي انطلق ظاهريا من حدود الشريعة، وانتهى إلى صياغة أطروحاته التي تفقر خارج هذا الإطار وتحاول، من داخله أن تخلخله وتتخطاه.فكانت انطلاقة من الموقف الديني المتشكل لشتى صنوف التفكير والسلوك [5] .

إذا كان لا بد لهذا الفريق من المتصوفة، من مراعاة أساسيات الموقف الديني المسيطر، والانطلاق من حدوده، وإصباغ بعض خصائصه على نشاطهم، بما يحقق لحركتهم شيئا من السير، وقدرا ضروريا من الحرية يمكنهم من تصعيد نشاطهم، ليتسنى لهم من بعد الوصول إلى صدع السائد وتغييره .

---

[1] -ابن كثير : البداية والنهاية، تح :علي شبري، دار إحياء التراث العربي، ط1،(د.ت)، ص 113.

[2] -وفيق سليطين: الشعر الصوفي بين مفهومي الانفصال والتوحد، دار الرأي للنشر والتوزيع، دمشق،(د.ط)،2007، ص 48.

[3] -المرجع السابق، ص 49.

[4] -علي صافي حسين: الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري،(د.ط.ت) ، ص 36- 55.

[5] -وفيق سليطين: الشعر الصوفي بين مفهومي الانفصال والتوحد، دار الرأي للنشر والتوزيع ،سوريا ،(د.ط.ت)،ص 49.

إن المنهج في البحث، يقتضي أن نتناول الظواهر والتيارات ضمن زمنها التاريخي، أي من خلال علاقتها بالبنية الاجتماعية التي أنتجتها، وبالظروف التاريخية التي ولدت هذه البنية، وبهذا نتجنب المنزلق الذي وقع فيه بعض الباحثين عندما ذهبوا إلى رسم الصراع على أنه صراع أفكار، لا صلة له بمراجعة التاريخية والاجتماعية [1].

6- الشعر الصوفي بين مفهومي الانفصال والتوحد:

لقد مر بنا أن التجربة الصوفية تنقسم من حيث علاقتها بالشريعة إلى قسمين :

قسم بقي في إطار الشريعة الإسلامية يمنح منها ويعيد إنتاج معطياتها، وقسم خرج عن تعاليمها واتجه إلى تكوين نظامه القيمي بشكل مخالف لنصوصها.

إن الشعر الصوفي باعتباره ثمرة من ثمار التجربة ووسيلة من وسائلها التعبيرية التي تنقل الخبرة وتختزنها، كان لا بد له من أن يتعين في ضوء القسمة المشار إليها.فهذا الثابت تاريخيا أن الحركة الصوفية نتجت عن حركة الزهد التي تعود إلى القرن الهجري الأول، وكانت حركة الزهد هذه تشكل مقدمة التصوف ونواته، عبرت في وقتها عما نزل بالمجتمع العربي [2] .

إن الشعر الصوفي مثل التجربة الدينية الرسمية كان امتدادا الممارسة الزهدية في بعدها الشكلي، بعد أن تفرغت من محتواها وتحولت إلى ممارسة طقوسية، وأن الشعر الصوفي، الذي مثل التجربة في بعدها الاجتماعي، كان ثمرة للزهد في جانبه العميق، وبات تعسرا ايديولوجيا عن مقتضيات الصراع [3].

وانطلاقا من هذا الفهم نتناول مفهومين أساسين هما:

6-1- مفهوم الانفصال:

وهو يشمل الشعر الصوفي الرسمي، أي الذي عبر عن إيديولوجية الدولة، وأقر بالانفصال الكلي للإلهي عن الإنساني، وهذا المفهوم جملة من النصوص الشعرية التي بين أيدينا، وهو يكشف عن المغزى الذي تنشده هذه

[1]-أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني: ابن سبعين وفلسفته الصوفية، ص95.

[2]-وفيق سليطين: الشعر الصوفي بين مفهومي الانفصال والتوحد، ، ص 65.

[3]-المرجع نفسه، ص 66.

النصوص في خطابها القائم على أساس الإقرار بعاملين متباعدين هما: عالم الحقائق أو العالم الروحي، وعالم المحسوسات الذي ما هو إلا ظل للأول، وأن هذه النصوص تقوم على التنزيه الإلهي [1] .

وضمن مفهوم الانفصال نميز بين اتجاهين للنصوص الشعرية من حيث وضوح "المرسلة" بتعبير لوتمان [2]

6-1-1- الاتجاه المباشر: ويمكن أن نسميه الاتجاه التعليمي إذ أنه يقوم على بعد حكمي أخلاقي، ويهدف إلى تربية المريد وتهذيبه، وتقتصر نصوصه على نظر جملة أفكار تنقلها عناصر العمل نقلا سلبيا.يقول ابن عطا الله السكندري:

هذه الشمس قابلتنا بنور وشمس اليقين أبهر نورا

فرأينا بهذه النور لكن يهاتيك قدر رأينا المنيرا

نلاحظ هنا أن القول الشعري يتحدد بوصفة تقريرا، لأنه يهدف إلى نقل معرفة معينة "خبرة" وهذه الخبرة لا ينتجها النص، بل أن غايته تنحصر في نقلها وإيصالا بوصفها حقيقة راسخة ومعطاة من قبل على نحو نهائي لا يحتمل الشك والتساؤل، ويمكننا أن نفكك هذين البيتين إلى وحدتين أساسيتين هما :

1- الشمس الطبيعية	2- شمس اليقين
- يعتريها الأفول والغياب	- منزهة عن النقصان
- نرى بها النور "الرؤية بصرية"	- نرى بها المنير "الرؤية قلبية، بصرية"

إن النص مبني على ثنائية تجري المقابلة بين طرفيها، فالرؤية البصرية تقودنا إلى العالم الحسي، لذلك فإن فعلها باطل ومخادع، أما الرؤية القلبية فهي تتجاوز المحسوسات وصولا إلا عالم الحق والكمال [3] .

6-1-2- الاتجاه الرمزي :

إذا كان شعر الوعظ والتعليم قد اتخذ التعبير المباشر سبيلا لنشر القيم الدينية، وإيصالها إلى المريد بيسر وسهولة، واعتمد أسلوب الشرح والتفصيل والإقناع، فإن الاتجاه الذي نتناوله الآن، يختلف عن سابقة من حيث

[1]-المرجع نفسه، ص 67.

[2]-لوتمان: في الشعرية، ص 117.

[3]-وفيق سليطين: الشعر الصوفي بين مفهومي الانفصال والتوحد، ص 93.

الأدوات التعبيرية التي يستخدمها ويبني رسالته من خلالها، فالاتجاه الرمزي تجري الإحالة من خلاله إلى أكثر خفاء، وهو بتعبير الطوسي، "معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر، لا يظفر به إلا أهله" [1] .

إن شعر هذا الاتجاه، هو شعر التجربة الروحية للتصوف، التي يصعب وصفها والكشف عن تفاصيلها بأساليب معتادة، لأنه يتكئ على التعبير غير مباشر، أب البعد الخفي الذي تعانيه الضمائر والقلوب، إن شعر هذا الاتجاه يختلف، تعبيريا، عن شعر الاتجاه الأول، ولكن يلتقي معه في النتيجة التي يوصل إليها، يقول أبو العباسي المرسي:

أعندك من ليلى حديث محرر بإيراده يحيا الرميم وينشر

فعهدي بها العهد القديم وإنني على كل حال في هواها مقصر

وقد كان منها الطيف قدما يزورني ولما يزر ما باله يتعذر

ومن وجه ليلى طلعة الشمس تغتني وفي الشمس أبصار الورى تتحير

تتبدى لنا الإشارة إلى الإلهي باستخدام الرمز الأنثوي، الذي لجأ إليه شعراء المتصوفة، بهدف التعبير عن المطلق بواسطة الصورة الحسية، وذلك من أجل التوصل، تعبيريا إلى تشكيل علاقة مع العلو غير المتعين [2] .

6-2- مفهوم التوحد:

رأينا أن نصوص الشعر الصوفي، التي تنطوي تحت مفهوم الانفصال، تحيل إلى الإلهي، باعتباره جوهرا مفارقا للعالم ومتحكما به، ومن هنا كانت تهيب بالإنسان ليسقط سعيه ويكبح قدراته فلا ينسب لنفسه أدنى فعل، بل يظهر فقط بوصفه محلا لفعل الله وإرادته.

إن النصوص التي تنطوي تحت مفهوم التوحد تعمل للخروج إلى فكرة الإله المتعالي .

[1] -الطوسي: اللمع، ص 338.

[2] -وفيق سليطين: الشعر الصوفي بين مفهومي الانفصال والتوحد، ص125.

الفصل الثاني: الأمير عبد القادر وتصوفه

1- نشأة الأمير عبد القادر

2- أراء الأمير عيد القادر

3- آثار الأمير عبد القادر الشعرية والنثرية

3-1- الآثار الشعرية

3-2- الآثار النثرية

4- الأمير عبد القادر وتصوفه

4-1- الأمير وفهمه للتصوف

4-2- التطور الروحي للأمير

4-3- مراحل الطريق الصوفي

4-4- الأحوال والمقامات

4-5- الرمز والمصطلح الصوفي

4-6- المكاشفات الصوفية .

الفصل الثاني: الأمير عبد القادر وتصوفه

1- نشأة الأمير عبد القادر

هو الأمير عبد القادر، بن محي الدين، بن مصطفى، بن محمد بن مختار، بن عبد القادر، يتصل بنسبه بالإمام الحسين بن علي بن أبي طالب، أما كنيته: فهي أبو محمد. وأما ألقابه فممتدة وقد أطلقت عليه في مناسبات شتى، فمن ألقابه: أمير المؤمنين ناصر الدين[1] والأمير، وابن الراشدي، وابن خلاد[2]، ولد يوم الجمعة 27 من رجب سنة 1122هـ الموافق لشهر أيار سنة 1807م، وقد أجمع على ذلك البيطار والبغدادي[3] .

أما مكان ولادته ففي قرية "القيطنة"، وكان والد الأمير الشيخ محي الدين من حماة الشريعة، وهو ابنه من زوجته الثالثة، وهي السيدة ابنة السيد محمد بن دوحة الحسنية[4]، فقد نشأ الأمير نشأة دينية لأن والده كان متصوفا، وقد أولى عناية خاصة بدراسة علوم اللغة والفقه والتفسير، فقد كان يقرأ ويكتب عندما كان في الخامسة من عمره[5] .

أخذ الأمير في أثناء إقامته بدمشق الطريقة التقشبندية عن العارف بالله الشيخ خالد التقشبندي السهر وردي، فسمع منه علوما شتى في التوحيد والتصوف[6]، وحين سافر الأمير إلى بغداد وزار القطب الكبير عبد القادر الجيلاني، فأخذ الأمير الإجازة بالطريقة القادرية ولبس الخرقة، مكث ببغداد ثم في القاهرة فأقاما فيها مدة اجتمعا في أثنائها بعلمائها وفضلائها[7]، وقد تمكن الأمير في هذه الرحلة العلمية وتلك السياحة الدينية، من تحصيل كثير من المعارف والعلوم الدينية كالحديث والتفسير وعلوم التصوف والأصول وعلم الكلام من قراءة كتب الفلسفة كرسائل إخوان الصفاء، وكتب أرسطو وابن سينا[8]، إضافة إلى تعمقه بالقراءة والممارسة لمؤلفات الصوفي الكبير "محي الدين ابن عربي" الذي تأثر به إلى حد كبير في تصوفه.

---

[1]- محمد بن الأمير :تحفة الزائر،تح :ممدوح حقي ،بيروت،ط2، 1964 ،ص 156.

[2]- الأمير عبد القادر: الديوان،تح :ممدوح حقي،بيروت، ط1،1964، ص 53.

[3]- البغدادي: هدية العارفين، ، طهران ،ط3،م1،ج1،1967م، ص605.

[4]- إحسان حقي: الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد، بيروت سنة 1961، ص74.

[5]- جرجس زيدان: تراجم مشاهير الشرق، ط2. مصر 1910، ج1، ص182.

[6]- السندوبي: أعيان البيان، مصر،ط1،1919م، ص 171.

[7]- كريم ثابت: الأمير عبد القادر، مجلة الهلال، مج 41، ج8، ص 1036.

[8]- رابح بونار: الأمير عبد القادر حياته وأدبه، مجلة أمال الجزائرية، العدد8، ص: 14.

توفي الأمير عبد القادر في 19 من رجب عام 1300هـ، 24 أيار عام 1883م، في قرية دمر بضاحية دمشق، عن ستة وسبعين عاما .

2- أهم آراء الأمير عبد القادر:

يمكن أن نستعرض بعض آراء الأمير عبد القادر الهامة، وعلى الرغم من أنه له كثيرا من الآراء الفلسفية والثقافية، التي تحتاج إلى دراسة متأنية، إلا أن هذه الآراء لها دلالات خاصة في فهمه للإنسان خاصة للمرأة والتي تشكل جزءا كبيرا من أشعاره، وكذلك فهمه وتذوقه للقرآن الكريم الذي يعول عليه كمصدر أساسي للمعرفة، وكذلك عقيدته في القضاء والقدر والتي كان لها تأثير كبير في تشكيل مواقفه وجهاده[1] .

أ- رأيه في المرأة:

إذا أردنا معرفة رأي الأمير في المرأة، فسنجدها صورة طبق الأصل للمرأة العربية الأصيلة في أعماق تاريخنا العربي والإسلامي، فالمرأة المسلمة اختارت أن تبقى ظلا للأمير الفارس، ولكنه الظل الذي يأوي إليه حين يشتد القيظ، وقد كان وفيا فنجده في الديوان مخاطبا زوجته التي يكنيها أم البنين، بلسان الفارس قائلا:

تَسْأَلُنِي أُمُ اَلْبَنِيْنْ، وَأَنَّهَا لَأَعْلَمُ مِنْ تَحْتِ اَلْسَّمَاءِ بِأَحْوَالِي[2]

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا رَبَّةَ اَلْخَدْرِ أَنَّنِي أَجَلَى هُمُوْمَ اَلْقَوْمِ فِي يَوْمِ تِجْوَالِي

وَأَغْشَى مَضِيقَ اَلْمَوْتِ لاَ مُتَهَيِبًا وَأَحَصِي نِسَاءَ اَلحَيِّ فِي يَوْمِ تِهْوَالِي .

يرى بعض الباحثين ربما كانت والدة الأمير ذات شخصية طاغية تفرض الإعجاب والاحترام على كل من يراها، وهي بالفعل كذلك، ومن هنا نفهم سر إعجاب الأمير بوالدته، فقد كان شديد التعلق بها، يصطحبها في أسفاره، وكأنه يلتمس من عقلها الراجح فضلا عن تشربه لوجهة نظر الإسلام في المرأة، فقد كان الأمير يحب ويكرم ويحترم النساء، اقتداء بأقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله خاصة وأن هناك كثيرا من الأحاديث النبوية الصحيحة التي توصي بهن خيرا منها حديثه الشريف :"ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهان النساء إلا لئيم"، وحديثه :" خيركم خيركم لامرأته وأنا خيركم لنسائي" فضلا عن مشورته صلى الله عليه وسلم لنسائه في كثير من الأمور.

ب- رأيه في إعجاز القرآن الكريم:

[1] - بركات محمد مراد: الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي، (د.ط) ، (د.ت) ، ص 38.

[2] - الأمير عبد القادر: الديوان، ص 11.

فإذا انتقلنا إلى موضوع آخر له دلالته، وهو رأي الأمير في إعجاز القرآن الكريم [1]، واستعرضنا مختلف وجهات النظر، فسنجد الإمام "الطبري" يرى أن بيان القرآن هو سبب فضله على ما قبله من الكتب السماوية، ولا يفضل أبو هلال العسكري على دراسة البيان إلا معرفة الله تعالى، وإذا أردنا تبيين مذهب الأمير في إعجاز القرآن، فسنجد صعوبة نسبته أو إضافته إلى أي من هذه المناهج والمدارس حسبما انتهى إلى تفصيلها المؤرخون المتخصصون الشرعيون منهم والبلاغيون .

وهو يذهب مذهب البيانيين الذين يمنعون الترادف في القرآن "لأنه يجل عن تكرر لفظة لغير زيادة معنى حسب تقريره، فهو يكدح ويسعى للوصول إلى أوجه جديدة لإعجاز القرآن، وجهده هذا وسعيه هو الذي يجعله يقول بضرورة التجديد في فهم آيات القرآن، فإن قابليتها لهذا التجدد المستمر[2]، في رأيه وجه من وجود الإعجاز، بل أول وأولى الوجوه، وهو يرى أن لكل قادر على النظر والفهم والتذوق والتعبير أن ينظر في القرآن ويعبر دون مصادرة، ولكن عليه ألا يقطع بأن رأيه في الآية هو الرأي الوحيد والأخير، فهذا يجعل لعجائب القرآن ولأسراره نهاية، وعجائبه وأسراره في حقيقة الأمر لا نهاية لها، ومن هنا يحظر الأمير عبد القادر رواية القرآن الكريم والحديث الشريف بمعانيها، لأن نص الآيات والعبارات والحروف لها إيماءات ودلالات تختلف الأنظار والأذواق والأفكار والاستعدادات حولها [3]، فنظم القرآن الذي هو عليه وخاص به يتيح لكل أن يأخذ ما يناسب استعداده، فالحق تعالى يعطي كل ناظر فيه ما يستحقه من مدلولات لا يحاط بها مهما كانت نتائج النظر: إما هدى وإما ضلال، فالعطاء واحد ولكن أخذ الاستعدادات وهي كثيرة لا تنفذ هو المختلف [4]، فذلك كله على ما فيه من اختلاف وجه من وجوه الإعجاز.

ت– رأيه في القضاء والقدر:

يمكننا أن نتبين رأي الأمير عبد القادر في القضاء والقدر من تصفحنا لمؤلفاته، ومن متابعتنا لسيره حياته، وهو أولا وقبل كل شيء يؤمن، كما يؤمن كل مسلم، بأن القضاء والقدر كله من الله تعالى، وأن الأمر لله من قبل ومن بعد، إلا أن للأمير ولكثير من الصوفية كالقشيري والجنيد والطوسي والغزالي وتطبيق دقيقين للسببية وللارتباط الوظيفي بين السبب والمسبب، والمقدمات والنتيجة، دون تحايل ولا تهاون، إلا أنهم يرون أن

[1]– بركات محمد مراد: الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي، ص 42.

[2]– بركات محمد مراد:الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي، ص 43.

[3]– محمد السيد محمد علي الوزيري: الأمير عبد القادر ثقافته، (د.ط) ، الجزائر عام 1986، ص 8.

[4]– الأمير عبد القادر: المواقف ، ط2 ،ج1، 1966 ،ص 166.

الله تعالى على الحقيقة هو الفاعل والسبب الأقصى، فلا فعل للأشياء والأسباب بنفسها، وإنما الآثار والنتائج تكون عند اجتماع الأسباب والظواهر، والأمير بذلك لا يوضح موقفه الأخذ بالأسباب فحسب، بل هو يحارب تيارا ساد في زمن الجهل والتخلف بين بعض المتصوفة الذين اعتقدوا أن الأخذ بالأسباب يقدم في التوكل وينال من إيمان الصوفي بالقضاء والقدر[1] .

والأمير بذلك يقدم لنا تفسير صوفيا صحيحا لموقف السلك من قضية الإيمان بالقضاء والقدر ويعبر لنا عن ظاهره وباطنه، حقيقة إيمانه الداخلي، ومجال نشاطه وسلوكه الخارجي يقول عن هذا الموقف :"فمن نظر إلى باطن العارف وجده جبلا لا يتحرك، ثابتا لا يتدكدك، ليس له نظر إلى الأسباب ولا عبر له بها" وهذا العظيم ثقته[2] .

3- آثار الأمير عبد القادر الشعرية والنثرية:

ليس للأمير عبد القادر مؤلفات كثيرة، فقد اهتم بالتدريس والتربية الروحية والفكرية لتلاميذه ومريديه أكثر من اهتمامه بتأليف الكتب ووضع المصنفات، ورغم هذا نجد ه آثارا شعرية رائعة وبعض المؤلفات النثرية العميقة، ومن هنا يمكننا تقسيم آثاره إلى آثار شعرية وأخرى نثرية[3] .

3-1- الآثار الشعرية:

ليس الذي بين أيدينا من أشعار كل ما نظم الأمير عبد القادر، فقد نم شعرا في شبابه ضاع معظمه، وقد عالج "الدكتور محمد ناصر [4]) في منتخباته هذه المسألة، وأهم آثار الأمير الشعرية الموجودة :

1- الديوان: وكانت المحاولة الأولى لجمعه، حيث ظهر فيها كتاب بعنوان "أشعار الأمير" ضمت بعض أشعار الأمير، وقد تم طبع الديوان في مصر عام 1317هـ/ 1899م، بدليل أن مجلة الهلال ذكرت الديوان تحت عنوان "باب التقريظ والانتقاد" [5] .

---

[1]- بركات محمد مراد: الأمير عبد القادر المجاهد الصوفي، ص 44..

[2]- المرجع السابق، ص 45.

[3]- المرجع السابق، ص 46.

[4]- محمد ناصر: منتخبات من شعر الأمير عبد القادر، (د.ط) ،(د.ت) ،ص 13.

[5]- مجلة الهلال: مجلد: 08، القاهرة عام 1899، ج: 20، ص 229.

وفي مطلع الستينيات من هذا القرن، بدأ أولى المحاولات العلمية الصحيحة لتحقيق الديوان وضبطه وشرحه مع الدكتور "ممدوح حقي" فظهرت طبعته الأولى عن دار اليقظة العربية في دمشق، ونشر بمناسبة مرور مائة عام على حمايته، ثم توالت طبعاته المحققة بعد ذلك[1] .

وقد رتب الديوان تبعا لفنونه، في طبعته الأولى، فإذا هي خمسة: الفخر والغزل والمساجلات والمناسبات والتصوف، ومن هنا كان ترتيب الديوان ترتيبا موضوعيا، تبعا لموضوعاته وفنونه، لا ترتيبا تاريخيا، أو ألبفائيا، وقد قام باحث حديث[2]، بهذا الترتيب الأخير .

والأمير في قصائده في الديوان طرف كل أبواب الشعر من مدح وعتاب، وفخر وتوسل وشوق وتغزل وتهنئة ومطارحة، وما إلى ذلك من الأغراض الشعرية .

وعلى كل حال فالديوان يعطينا صورة واضحة عن قيمة الأمير الأدبية، وقوته الشعرية، ومقدرته الفنية في الفخر والحماسة، والمدح والتغزل والتصوف وغيرها .

2- القصائد الواردة في مقدمة كتابه المواقف:

وردت هذه القصائد في نهاية مقدمة كتاب "المواقف" وقد بلغ عددها تسع عشرة قصيدة ثلاث منها وردت في الديوان، والباقية وردت في مقدمة كتاب المواقف وتتميز بأنها تنتمي إلى فن أدبي معين، وهو فن التصوف .

2-3 الآثار النثرية:

1- المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد:

رد بها على الطاعنين في دين الإسلام، ممن عموا عن فضائله، وتشبثوا بها ليس منه في شيء من بدع المارقين وأهل النفاق، وهذا الكتاب فيه من حجج دامغة وأدلة منطقية ساطعة، ما يثبت وجود الخالق العظيم لهذا الكون الهائل، وقد ألفه الأمير خلال إقامته أسيرا في أمبواز بفرنسا[3]، فتعتبر هذه الرسالة أولى المؤلفات النثرية، وقد ألفها تحت إلحاح تلاميذه ومريديه.

ورتب الأمير عبد القادر الرسالة على مقدمة وثلاثة أبواب:

أما المقدمة: ففي الكلام على العقل وما يتعلق به، وجعل الباب الأول في إثبات الأولوية .

---

[1]- بركات محمد مراد: الأمير عبد القادر المجاهد الصوفي، ص48.

[2]-فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا،(د.ط) ، الجزائر، 1985، ص 92.

[3]-محمد بن الأمير :تحفة الزائر، ص 542.

والباب الثاني : في إثبات النبوة مع الرسالة . أما الباب الثالث: فهو موضوع الرسالة ففيه بيان ما ورد في الشرع من "وجوب الوفاء، والأمر به، وترك الغدر والنهي عنه وما يتعلق بذلك، كالصدق والكذب[1] .

2- المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد:

وهذا الكتاب هو أهم مؤلفات الأمير عبد القادر، في ثلاث مجلدات، موضوعه التصوف، وفيه مباحث صوفية، وتفسير آيات القرآن الكريم، وبسط للعقيدة الإسلامية بأسلوب صوفي رفيع.

وقد ألفه تحت إلحاح ثلاثة من العلماء الأفاضل، ورجوه أن يدون ما يتكلم به في مجالسه، فكان ذلك نواة الكتاب الصوفي عرف فيما بعد باسم "المواقف" ويرى "جواد مرابط" أن الشيخ "عبد الرزاق البيطار"، كان أول من اقترح على الأمير أن يدون ما يذكره في مجالسه[2] .

ومن يتصفح المواقف، يتبين له أنه عبارة عن أحاديث الأمير ودروسه ومواعظه التي كان يلقيها على لطلاب والعلماء، ولهذا فإن الكتاب لم يؤلف في فترة زمنية قصيرة معينة، ولكن ألف في فترة زمنية طويلة متباعدة، ويرجح أحد الباحثين[3]، أنه ألف بين سنتي 1272- 1300هـ، وهي الفترة الأخيرة من حياة الأمير في دمشق، ويبدو فيه تعدد أماكن تأليفه وأزمنته، بحسب الواردات الإلهية التي كانت ترد على الأمير، فقد كان يسجل كثيرا من إلهاماته وكشوفاته الصوفية، فهي تارة في مكة وطورا في المدينة، وأحيانا في دمشق، التي كانت سباقة إلى إخراج الكتاب إلى حيز النور عام 1329هـ / 1911م بأجزائه الثلاثة، ثم طبع عدة طبعات بالقاهرة آخرها، محققة تحققا علميا دقيقا، وهذا الكتاب موسوعة للأمير في التصوف، اعتبره ابنه الأمير محمد "لعقد تأليفه واسطة النظام، ولمطلع مجده، بين القصيدة وحسن الختام[4] وعده النبهائي" من أجل مناقبه وأعظم كراماته ... وفي رأي "شكيب أرسلان" "أنه لا يوجد نظيره في المتأخرين"[5] .

4- الأمير عبد القادر وتصوفه :

4-1- الأمير وفهمه للتصوف:

[1]-المرجع السابق، ص: 543- 544.

[2]-جواد مرابط: التصوف والأمير عبد القادر، دار اليقظة العربية ،دمشق ،(د.ط) ،1966م ،ص 89.

[3]-فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا، ص 99.

[4]-محمد بن الأمير: تحفة الزائر، ص: 932.

[5]-شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي، م 1، ج2، ص 173.

إذا كان أحد أساتذة[1] التصوف يرى أن التصوف هو "صدق التوجه إلى الله بما يرضاه من حيث يرضاه " يقول الحريري" هو" الدخول في كل خلق سني والخروج من خلق دني"[2]، ويقول الجنيد عنه "أن تكون مع الله بلا علاقة"[3]، فإن الأمير عبد القادر يرى أن التصوف هو "جهاد النفس في سبيل الله أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية، والاطمئنان والاذعان لأحكام الربوبية، لا شيء آخر من غير سبيل الله[4] .

والصوفية في نظر الأمير هم هؤلاء الذين عليهم "أن يكونوا في جميع أحوالهم وتصرفاتهم، حاضرين مع الله تعالى"، ويسمى الصوفيون "بالعارفون وأهل الله[5]، ويتحدث عنهم في المواقف، فالصوفية في نظره ليسوا هؤلاء الذي يأكلون النار ويدخلون مسامير الحديد في أشداقهم، ويدخلون النقور ويمشون راكبين على ظهور الأشخاص ليعرفهم العوام...، فالتصوف في نظره إخلاص العبادة لله تعالى، ومراقبته في السر والعلانية، ومن هنا يعتبر الصوفية هم سادات طوائف المسلمين[6] .

والتوجه إلى الله تعالى بمنهج التصوف في نظر الأمير وعامة الصوفية هو التوجه إليه بعد التحقق بمرتبتي الإسلام والإيمان، ومن الأسباب التي دفعت الأمير إلى سلوك منهج الصوفية كثيرة ومتعددة أهمها نسبه وانتماؤه إلى أل البيت النبوي الشريف، وهو النسب العفوي الطبيعي، الذي كان يفتخر به وخاصة حين يفسر الآية الكريمة "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا"[7] .

وكذلك من أسباب انخراطه في التصوف، تربيته الدينية الصوفية، فقد شب الأمير في جو تربوي ديني، فهو ابن الزوايا والمساجد .

والأمير لا يقنع إلا باجتياز التجربة الصوفية وممارسة المجاهد الروحية، بعد أن يكسر حجاب التقليد، ويصير غير مقلد ولا مقيد، وهو في هذه الحالة يدرك عن الله بفهمه القرآن والسنة بالتفهم الرباني[8] فتصير إرادته

---

[1]-زروق المغربي: قواعد التصوف، (د.ط) ، (د.ت) ،ص 60.

[2]-القشيري: الرسالة القشيرية، ص551.

[3]-الطوسي: اللمع في التصوف، ص 45.

[4]-الأمير عبد القادر : المواقف، م 1، ص 141.

[5]-المرجع نفسه، ص39.

[6]-المرجع نفسه، م 2،ص 468.

[7]-سورة الأحزاب: الآية 33.

[8]-الأمير عبد القادر: المواقف، م1، ص 459.

الإلهية ومواقفه الصوفية ودقائقه "نفثات روحية، وإلقاءات سبحانية بعلوم وهيبة، وأسرار غيبية، من وراء طور العقول، وظواهر النقول، خارجة عن أنواع الاكتساب[1]

ومن هنا يتبين لنا أن التجربة الصوفية عنده والتي اختار اجتيازها في طريقة لا تعتمد على التلقين والتعليم والاكتساب، ولا تتم بالجدل والمناظرة ولكنها طريقة التحقيق الذوقي والممارسة القلبية والتصفية الوجدانية، ومن هنا نفهم خطابه للخاصة وليس للعامة .

4-2- التطور الروحي للأمير عبد القادر:

وقد انتقل الأمير عبد القادر في تصوفه عبر مراحل من التطور متعددة، أهمها تلك المرحلة التي ذهب فيها إلى الشرق مع والده لأداء فريضة الحج فقد أتاحت له فرصة الاتصال بالطرق الصوفية، ومجالسة علماء التصوف، والأخذ عنهم، فكانت فترة حياته المبكرة مع والده في زاويته أو مدرسته هي مرحلة التلقي والقراءة والاطلاع على الكتب ومؤلفات التصويف نظريا، فإن رحلته الأولى إلى الشرق هي رحلة الاتصال بشيوخ التصوف والأخذ عنهم وممارسة رياضاتهم الروحية ومجاهداتهم النفسية، فقد أخذ الطريقة التقشبندية[2] في مدينة دمشق عن الإمام التقشبندي واستمع إلى دروسه في التوحيد والتصوف.

وكذلك أخذ الطريقة القادرية[3] في بغداد عن نقيب الأشراف الكيلاني القادري.

أما المرحلة الثانية من مراحل تصوفه واصطبغت هذه المرحلة بالفتوة والفروسية والمرابطة تلك الصفحات التي يتصف بها كبار الصوفية، وقد امتاز اتجاه التصوف الذي اعتنقه الأمير بأنه تصوف أقرب إلى روح الشريعة الإسلامية وجوهرها، وفي ظل العقيدة التي تجمع بين العبادة النظرية أي العلم والعبادة العلمية أي السلوك، ويتقلد الأمير ذروة الفترة المرابطة بمعناهما الإنساني النبيل يقول:

يَا عَبْدَ الْحَرَمَيْن لَوْ أَبْصَرْتَنَا لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي اَلْعِبَادَةِ تَلْعَبُ

مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَهُ بِدُمُوعِهِ فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَبُ

رِيْحُ الْعَبِيْرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيْرِنَا وَهْجُ السَنَابِكِ وَالْغُبَارُ اَلْأَطْيَبْ[4] .

---

[1]-المرجع نفسه، ص 9.

[2]-أحمد توفيق عياد: التصوف الإسلامي تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره ،الأنجلو المصرية ،القاهرة ، (د.ط) ،1970 ،ص 297- 298.

[3]-المرجع نفسه، ص 279- 283.

[4]-الأمير عبد القادر: الديوان، ص 96.

أما المرحلة الثالثة في تصوف الأمير فمنذ أن كان أسيرا، حيث أتاح له الأسر فرصة كبيرة للخلو والعبادة، بعد أن ضاقت عليه الأرجاء، ككثير من الصوفية الذين يرون أن الابتلاء من الله امتحان وتمحيص واختبار للصوفي يمكن أن يصير منه إذا أحسن الصوفي استغلاله وتحمله بالبصر الجميل، وقد أشار الأمير إلى هذه المرحلة التي سماها "خلوة" في الموقف الحادي عشر بعد المائتين في كتابه المواقف، وقد أتاحت هذه الخلوة له، فرصة للتأمل الصوفي ولتفكير الهادئ، وكانت هذه المرحلة من التأسيس الصوفي هامة له حيث كانت إعداد المرحلة الأخيرة والتي سيصل فيها إلى ذروة التصوف، وامتازت بالإنتاج الأدبي والفكري الصوفي الغزير[1] .

وتعتبر المرحلة الرابعة والأخيرة من تصوف الأمير مرحلة خصبة وغنية بالتجربة الصوفية، فقد تعمق في هذه المرحلة في علوم القوم [2]، وأظهر من دقائق الحقائق، وعوارف المعارف ما يؤذن بسمو مقامه، وعلو قدره، إذا كان يصوم شهر رمضان على الكعك والزبيب، معتزلا عن القريب والغريب وله خلوة يتحنث بها في قطره[3] .

وتمتاز هذه المرحلة بطولها الزمني فبعد التقائه بالشيخ الفارسي شيخ الطريقة الشاذلية ملازما للاجتهاد والرياضة القلبية، عاكفا على الأذكار والأوراد، مرتقبا في معارج الأسرار الإلهية، يقول الأمير محمد ابنه في تحفة الزائر :" وما تم له الارتقاء إلا في غار حراء، لأنه انقطع فيه أياما عديدة، إلى أن جاءته البشرى، ووقع له الفتح الرباني، وانفتح له باب الواردات، واستظهر من القرآن الكريم آيات، ومن الحديث النبوي أحاديث صحيحة[4] .

وقد أشار الأمير إلى هذا الفتح الرباني في المواقف الأول من مواقفه، موضحا حاله مع الله وهو حال لا يكون إلا لكبار أساتذة التصوف الصادقين مع الله، والموافقين بمنته وإلهامه، وهو حال يتفق تماما مع التزام هؤلاء الصوفية بتعاليم القرآن الكريم والسنة الشريفة .

4-3- مراحل الطريق الصوفي :

الطريق الصوفي طريق ديني قلبي وليس طريق فلسفيا عقليا، يعتمد على رياضة النفس ومجاهدتها، وتصفية الوجدان من الكدورات، والتخلي عن كل الرذائل ثم التحلي بكل الفضائل للوصول إلى حالة الإشراق،

[1]-بركات محمد مراد : الأمير عبد القادر المجاهد الصوفي، ص 61.

[2]-المرجع السابق، ص 61.

[3]-أحمد تيمور: أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، (د.ط) ،(د.ت) ،ص 364.

[4]-الأمير محمد: تحفة الزائر، ص 695.

وهي حالة معرفة الله عن طريق الكشف والذوق، فإذا وصل الصوفي إلى غايته كان دائم الحضور مع الله ودائم الشهود لله، ويدرك الله في كل شيء، ويستطيع كل إنسان أن يصل على هذه المرتبة من السمو الروحي، إذ استطاع أن يسلك طريقها هذه الرحلة يسمونها "سلوكا" والصوفي الذي يسعى إلى الله بهذه الطريقة يسمى "سالكا"، والرحلة التي يقطعها الصوفي، هي الطريق وهي مراحل يعلو بعضها بعضا، مركبة من أحوال ومقاومات، وهذا لا يكون إلا بتحقيق المجاهدات واستفراغ الطاقة في اجتياز كل مراحل الأحوال والمقاومات، لتحقق مراحل الوصول إلى العرفان والكشف الصوفي[1].

المجاهدات الصوفية أو الرياضة الروحية هي سلوك الصوفي الذي يهدف إلى تطهير النفس وتخليصها من كدورات البدن وأدرانه، لكي يتبدل صفاتها، وتصبح أكثر استعداد للاتصال بعالمها الروحي الذي تنتمي إليه[2] .

والمجاهدة شرط أساسي من شروط السلوك في طريق التصوف، ولا يحصل للسالك شيء من نعمة الطريق إلا بالمجاهدة .

والمجاهدة إما أن تكون ظاهرة بجوارح، كالصوم والصمت والخلوة، وإما أن تكون باطنة بالقلب لرياضة النفس وتطهيرها من صفاتها الشريرة[3].

ويرى ابن خلدون أن مجاهدات الصوفي في سلوكه لطريق الحق "على ثلاثة أنواع متفاوتة بعضها متقدم على بعض وهي:

1- مجاهدة التقوى : فهي وقوف المريد عند حدود الله خوفا من عقوبته[4].

2- مجاهدة الاستفادة : فهي عبارة عن تقويم النفس، حتى تتهذب فتحسن أخلاقها، وتصدر عنها أفعال الخير، وتصير لها آداب القرآن والنبوة[5].

---

[1]-بركات محمد مراد: الأمير عبد القادر المجاهد الصوفي، ص 62.

[2]-مقال للدكتور أبو العلا عفيفي: التصوف في مجال المعرفة، مجلة المجلة،القاهرة ، ع104، 1965،ص30.

[3]-نيكلسون: الصوفية في الإسلام، تر: نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي ،مصر،(د.ط)،1951، ص 44- 45.

[4]-ابن خلدون: شفاء السائل لتهذيب المسائل، تح: الأب غناطيوس عبده، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ،1959، ص 44- 45.

[5]-المرجع السابق، ص34.

3- مجاهدة الكشف الاطلاع: فهي عبارة عن إخماد القوى البشرية، ونزع الصفات الدينية المذمومة، ثم محاذاة شطر الحق بالطريقة الربانية ليكشف الحجاب، وتظهر أسرار العوالم، وهو العلم الإلهي الذي يحصل بالتصفية[1] .

وهذه المجاهدة الثالثة هي أعلى درجات المجاهدة، ففيها أصبح القبل الصوفي مستعدا لقبول اليقين، وهو يقين قلبي وليس يقينا عقليا، وأصبح الصوفي ينظر بنور الله، فبعرف من المعارف والحقائق، ما لا يعرفه من هم دونه، ممن لا يستقون معارفهم إلا من الكتب وفي هذا يقول الغزالي "حجة الإسلام" :"فالكتب والتعليم لا تعني بذلك بل الحكمة الخارجة عن العصر والعد إنما تنفتح بالمجاهدة، والجلوس مع الله في الخلوة مع حضور القلب، فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف[2]، ومن هنا يختلف الصوفية أهل الإلهام والمكاشفة عن العلماء والفلاسفة وأصحاب النظر، فأرباب البصائر "ما رأوا شيئا إلا رأيت الله قبله، فالأول صاحب مشاهدة والثاني صاحب الاستدلال عليه... والأول درجته الصديقية والثاني درجته العلماء الراسخين[3]، ولذلك فقد أجمع الصوفية على أن "الطريق تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكفة الهمة على الله تعالى، مهما حصل ذلك، كان الله هو المتولي بقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولى الله أمر القلب، فاضت عليه الرحمة، وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت وانقشع عن وجه القلب حجاب العزة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية[4].

4-4- الأحوال والمقامات:

تعتبر المقامات والأحوال هي الدرجات والرتب التي يترقى فيها السالك، بعد أن يكون قد سار شوطا طويلا في مجاهدة نفسه ورياضتها، وتحلى بكل من الآداب العامة والخاصة، وتخلص من كل شوائب الرذائل، وأمراضها وأصبح قريبا في حالاته النفسية مما نسميه "الطمأنينة"، ولذلك فالمقام كسبي أي درجة من السلوك يمكن اكتسابها بالجهد والعمل والرياضة ومن هنا يقول "القشيري" :"المقام ما يتحقق به العبد بمنازلته من

[1]-نيكلوس :المرجع السابق ص 57.

[2]-الغزالي: أحياء علوم الدين، تح:بدوي طبانة ،الحلبي ،ج1، 1958م ،ص 71.

[3]-الإمام الغزالي: مشكاة الأنوار، تح:أبو العلا عفيفي ،الدار القومية .مصر ،(د.ط) ،1964م ،ص 63.

[4]- الغزالي: المنقذ من الضلال، تح:عبد الحليم محمود ،(د.ط) ،1972م ،ص 55.

الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاسات تكلف فمقام كل واحد موضع إقامته عند ذلك، وما هو مشتغل بالرياضة له[1]

وصحيح ما ذهب إليه أستاذنا "الدكتور العراقي"[2]، أن مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والانقطاع إلى الله، كما يذهب إليه الطوسي .

أما الأحوال فهي ما يرد على قلب السالك، دون كسب منه، وفيه يقول القشيري أيضا :"معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب، ولا اكتساب لهم من طرب أو حسن أو بسط أو قبض أو شوق وانزعاج أو هيبة"[3].

ويحلل "السراج الطوسي" الأحوال فبقول: "معنى الأحوال، ما يجعل بالقلوب أو تحلى به القلوب من صفاء الأذكار وليس الحال عن طريق المجاهدات والعبادات والرياضيات كالمقامات[4] . وكذلك يفرق الغزالي بين المقام والحال من ناحية أخرى "يسمى الوصف مقاما إذا ثبت وأقام، وإنما يسمى حالا إذا كان عارضا سريع الزوال، وهكذا كل صفات القلب تنقسم هذه الأقسام، فالذي هو غير ثابت يسمى حالا، لأنه يحول على القرب، وهذا جاء في كل وصف من أوصاف القلب[5].

ويتفق القشيري مع الغزالي في ذلك فيقول في هذا المعنى :"فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب والأحوال تأتي من غير الوجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود، وصاحب المقام ممكن في مقامه وصاحب الحال مترق عن حاله[6].

والمقامات والأحوال عند شيوخ التصوف متداخلة[7]، وما يعده بعضهم من المقامات، قد يعده بعضهم الآخر من الأحوال فالطوسي مثلا قد جعل المقامات سبعة في اللمع كل واحد منها ثمرة للمقام الذي يتقدمه وهي على الترتيب: التوبة، فالورع، فالزهد، فالفقر، فالصبر، فالتوكل، فالرضا، وأبو طالب المكي قد جعل في كتابه "قوت القلوب" المقامات تسعة والغزالي يبلغ بها في "الإحياء" عشرة مقامات أعلاه المحبة .

---

[1]-القشيري: الرسالة القشيرية، ص 34.

[2]-عاطف العراقي: ثورة العقل في الفلسفة العربية، ط3،1976، ص 140.

[3]-القشيري: الرسالة القشيرية، ص 34.

[4]-السراج الطوسي: اللمع، ص 66.

[5]-الغزالي: أحياء علوم الدين،ج4، ص 139.

[6]-القشيري: الرسالة القشيرية، ص 34.

[7]-شهاب الدين السهر وردي: عوارف المعارف، ج4، ص 281- 287.

وكانت الأحوال عنده هي: الأنسي، والشوق، الحياء، والانبساط، والإدلال والفناء، والبقاء.

والمقامات والأحوال عند الأمير، أو طريق الحق كما يسميه فسنجد أنه يبدأ بالهجرة التي تمثل له الأساس، وهو لا يهتم بتصنيفها وتبويبها والحديث عنها حديثا نظريا فلسفيا كما يتحدث المؤرخون والمصنفون، ولكن يتحدث عن الأحوال والمقامات التي خبرها بنفسه وعاشها وعانى من تجربته معها[1]

وقد مارس الأمير كثيرا من المقامات والأحوال خلال سيرة حياته الذاتية، فكل موقف وحدث من مواقف حياته هو سلوك على طريق الوصول إلى الحق .

ومن أهم الأحوال الروحية عند الأمير، والتي يكثر من حديثه عنها في مؤلفاته الصوفية، وأن هذه الأحوال ثلاثة:

أولها: حال القرب: والقرب من الحق –تعالى– قرب معنوي[2]، والصوفي يقترب بذاته من ذات الله تعالى وهو نوع من التوحيد الرفيع، ولذلك يصف الأمير الصوفية أو العارفون أو أهل الله بأنهم " القريبون من الله تعالى، القرب المعنوي... المليون دعوته، المستجيبون لطاعته، الداعون إلى معرفته[3] .

والقرب عند الأمير قربان: قرب النوافل: وهو أن يشهد العابد نفسه حال العبادة، بل وفي غيرها من سائر الأفعال والادراكات، وقرب الفرائض :وهو مستوى من القرب أعلى من النوع السباق، وفي هذا المقام يشهد العابد نفسه وقواه الباطنة وأعضائه الظاهرة .

فالقرب عنده زاده أشجانا وأحزانا، بينه وبين المحبوب، فلا القرب يشفي ولا البعد ينسي، وكلما ازداد قربا من المحبوب الأول، زاده هذا القرب عطشا إلى المعرفة الإلهية، ولذلك يصرخ الأمير في حال وجده قائلا:

وَإِنْ قُلْتُ يَوْمًا قَدْ تَدَانَتْ دِيَارُنَا لِأَسْلُو عَنْهُمْ، زَادَنِي اَلْقُرْبُ أَشْجَانَا

فَمَا اَلْقُرْبُ لِي شَافٍ وَلَا اَلْبُعْدُ نَافِعٌ وَفِي قُرْبِنَا عِشْقٌ، دَعَانِيَ هَيْمَانَا[4].

ثانيا: حال المحبة: تعتبر المحبة عند الصوفية حالا من الأحوال، التي تمنح للمرء وتوهب له من الله، وهو في سلوكه. ذلك أن الصوفي بغير المحبة ما كان يسعى إلى شق طريق التصوف واجتياز عقباته، فالمحبة هي مكافأة للصوفي من عند الله، والمحبة عند الصوفية "حال" يجده المرء في قلبه دون أن يستطيع التعبير عن هذا

[1]–بركات محمد مراد: الأمير عبد القادر المجاهد الصوفي، ص 69.

[2]–الأمير عبد القادر: المواقف، م2، ص 843.

[3]–المرجع نفسه، ص 302– 303.

[4]–الأمير عبد القادر: الديوان، ص 222.

الحال، فالمحبة لا يعبر عنها وإنما تترجم من خلال الأفعال التي يقوم بها الصوفي، من تعظيم لله والسعي إلى نيل رضاه[1].

وقد ملأ الأمير الصوفي قلبه معرفة بالله، وهياما بمحبته هذه المحبة التي عرف حلاوتها ومذاقها ونعمة عطائها، هي محبة ملكت عليه قلبه، فأشعلت فيه نار الشوق لمعرفة الحبيب وفي هذا الحال يقول:

مِنَ اَلْحُبِ مَا لِي كُلَمَا رَمَتْ سِلْوَانَا أَرَى حَشْوَ أَحْشَائِي مِنَ اَلْشَوْقِ نِيرَانَا؟

لَوَاعِجَ لَوْ أَنَ اَلْبِحَارَ جَمِيعُهَا صَبِين لَكَانَ الحُرُ أَضْعَافْ مَا كَانَا

فَلَو أَنَ مَاءَ الأَرْضِ طَراً شَرِبْتَهُ لَمَ نَالَنِي رَيٌ وَلَا زِلْتُ ظَمْآنَا[2].

والمحبة عند الأمير درجات ومراتب، وهي تشبه أنواع المحبة التي أشار إليها "الطوسي" في كتابه "اللمع"

.

ويعجب الأمير من صبر هؤلاء المحبين على أسرار المحبة الإلهية التي أؤتمنوا عليها، فحاول أن يتكتم هذا الهوى، ولكن أني له ما أراد لأن الهوى فضاح، وتظهر علامات المحبة عن المحب:

لَوْ كُنْتُ أُعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ لَأَعْجَبَنِي صَبْرُ اَلمحِبِينْ مَا نَاحُوا وَلَا بَاحُوا

أُرِيدُ كَتْمَ اَلْهَوَى حِينًا فَيَمْنَعُنِي تَهَتُكِي كَيْفَ لَا وَالحُبُ فَضَاحُ[3].

كما يعبر عن موقفه من العشق الإلهي، بأن، يحزن ويأسى لأهل هذا العشيق، لأن حظهم الهلاك سواء كتموا أو صرحوا بها .

وَيْحَ أَهْلِ اَلْعِشْقِ هَذَا حَظُهُمْ هَلَكِي مَهْمَا كَتَمُوا أَوْ صَرَحُوا[4].

ثالثا: حال المشاهدة: وهذه حال شريفة لا يتحقق بها إلا من يقومون بالمجاهدات الصوفية فيتحقق لهم من اليقين بطريق الذوق والوجدان، فالمشاهدة هي تحقيق الإيمان بالمعاينة، وقد عبر الأمير حين وصل إلى حال المشاهدة عنه بالوصال، هذا الوصال الذي اعتبره عيدا وأفراحا يقول:

أَوْقَاتٌ وَصَلَكُمْ عِيدٌ وَأَفْرَاح يَا مَنْ هُمْ الرُوحُ لِي وَالرُوحَ والرَاحُ

يَا مَنْ إِذَا اكتحلَتْ عَيْنِي بِطَلْعَتِهِمْ وَحَقَقَتْ فِي مَحْيَا الحُسنِ تَرْتَاحُ[1]

---

[1]-فيصل بدير عون: التصوف الإسلامي، القاهرة ،(د.ط)، 1983، ص 125.

[2]-الأمير عبد القادر: الديوان، ص 221.

[3]-الأمير عبد القادر :الديوان ، ص 217- 218.

[4]-المرجع نفسه: ص 224.

وهذا الوصال يحقق لصوفينا لذة النظر، فلم ينظر الأمير إلى شيء في هذا الوجود إلا وقد لاح منه أحباب قلبه، فهي صورة محبوبة ومن هنا يقول:

فَمَا نَظَرْتُ إِلَى شَيْءٍ بَدَا أَبَدَا إِلاَ وَأَحْبَابُ قَلْبِي دُونَه لَاحُوا .

4-5- الرمز والمصطلح الصوفي:

لا ينبغي النظر إلى اصطلاحات الصوفية أو رموزهم على أنها مجرد ألفاظ بل هي تدل على المعاني التي وضعت لها في حالة حركية، كما يقول أستاذنا الدكتور "أبو لوفا التفتازاني"، فهي تصور اتجاه الانفعالات والأفكار التي تعتلج بها نفس المتصوف تصويرا حيا، فهي بمثابة أدوات توقظ مشاعر سامعينا بمعنى الكلمة بشرط أن يكونوا من أهل الذوق لها[2] .

لجأ الصوفي في التعبير عن حبه الإلهي إلى لغة الرمز والإشارة، والشعر الصوفي هو تصوير يرقني قصد به الإشارة إلى حقائق روحية[3]، وقد اشتهر بنزعته: الغزلية والخمرية، ولعل المتصوفة قد " اصطنعوا هذا الأسلوب الرمزي لأنهم لم يجدوا طريقا آخر ممكنا يترجمون به عن رياضاتهم الصوفية، وقَد كانت الرمزية الخمرية عند الصوفية عامة والأمير خاصة غنية صادقة، وقد عبر الأمير في قصيدة من قصائد عن هذه الخمرة الإلهية، فذكر قدمها الذي يعود إلى ما قبل كسرى يقول:

مَعْتَقَةٌ مِنْ قَبْلِ كِسْرَى مَصُونَةٌ وَمَا ضَمَهَا دُونَ وَلاَ نَالَهَا عَصْرٌ

وَلاَ شَانَهَا وق وَلاَ سَارَ سَائِرٌ بِأَحْمَالِهَا كُلًا وَلَا نَالَهَا شَجَرٌ[4].

إن خمرة الأمير تذكرنا بخمرة الجنة، التي نفى القرآن الكريم عنها الإسكار، وهي خمرة صافية:

وَيَشْرَبُ كَأْسًا صَرْفُهُ مِنْ مَدَامَة فَيَا حَبَذَّا كَأْسًا ويَا حَبَذَّا خمَرٌ

فَلاَ غول فِيهَا لاَ وَلاَ عَنْهَا تَرْفَه وَلَيْسَ لَهَا بَرْدٌ وَلَيْسَ لهَا حَرٌ[5]

والخمر عند الأمير هي العلم كل العلم، ذلك أن نسبة الخمرة إلى العلم يقول:

هِيَ الْعِلْمُ كُلُ الْعِلْمِ وَالمرْكَز الذِي بِهِ كُلُ عِلْمٍ كُلُ حِيْنَ لَهُ دَوْرٌ[6] .

---

[1]-المرجع نفسه، ص 216.

[2]-أبو الوفا التفتازاني: التصوف الإسلامي، (د.ط) ،(د.ت) ،ص 167.

[3]-أبو العلا عفيفي: التصوف الثورة الروحية، (د.ط) ، ص 249.

[4]-الأمير عبد القادر: الديوان، ص 208.

[5]-الأمير عبد القادر:الديوان، ص 207.

[6]-المرجع نفسه، ص 208.

وحين يصل الأمير إلى الحقائق الإلهية يعبر عن ذلك بالشرب الذي هو مرادف للمعرفة، ويقول أنه من الأسرار ما يعجز الملوك عن معرفته، وهي معرفة الأسرار العلوية، أي نعمة المعرفة التي هي فوق كل المعارف والنعم، إنها نعمة معرفة الحبيب:

وَقَدْ أَنْعَمَ اَلْوَهَابُ فَضْلاً بِشُرْبِهَا فَلِلَهِ حَمْدٌ دَائِمٌ وَلَهُ اَلْشُكْرُ

فَقُلْ المُلُوكَ اَلْأَرْضَ: أَنْتُمْ وَشَأْنُكُمْ فَقِسْمَتُكُمْ ضَئِيزى وَقِسْمَتُنَا كُثُرٌ.

خُذْ اَلْدُنْيَا وَالُأخْرَى أَبَا عيْنُهُمَا مَعًا وَهَات لَنَا كَأْسًا فَهَذَا لَنَا وَفِّ[1]

وإذا كانت الخمرة عند الأمير رمزا للمعرفة الإلهية، أي معرفة الحبيب، واجب لوجود فان المحبة، أي الغزل الصوفي غزل إلهي للذات الإلهية.

4-6- المكاشفات الصوفية:

المكاشفات هي ثمرة التجربة الصوفية، فإذا كانت العلوم الحسية مستمدة من الحس، وإذا كانت العلوم العقلية مستمدة من العقل، فإن المعارف الكشفية مستمدة من التجليات الإلهية، فهي علوم إلهامية ذوقية، تلقي في القلب إلقاء ولا يستدل عليها من العقل ولا تستنبط من الفكر، وهي نتيجة المجاهدة والرياضيات القلبية للسالك، ولا تكون إلا بعد قطع مراحل كثيرة في الطريق الصوفي، ومعظم هذه الكاشفات الصوفية تتصل بالذات الإلهية وحبها والعشق والغناء فيها، والهيام بها[2].

[1]-المرجع نفسه ، ص 212.

[2]-بركات محمد مراد: الأمير عبد القادر المجاهد الصوفي، ص 79.

الفصل الثالث:ملامح الشخصية الصوفية للأمير عبد القادر من خلال بعض أشعاره

1- المدح الصوفي

2- الأبعاد الفنية في شعر الأمير عبد القادر

2-1- اللغة الشعرية

2-2- الصورة الشعرية

2-3- الموسيقى

الفصل الثالث: ملامح الشخصية الصوفية للأمير عبد القادر من خلال بعض أشعاره

1- المدح الصوفي:

لقد مر بنا من خلال ما سبق أن الأمير نشأ في أسرة دينية محافظة غرست في نفسه حب العبادة والتقوى، والزهد في الدنيا، لذلك فلا عجب أن نجده ينحو منحى صوفيا خلال حياته، ويتخذ أقطاب الصوفية أساتذة ومشايخ له يمدحهم ويعظهم محبة لهم، ولم يتعرض مدحه إلا لشخصين فقط هما: محمد الشاذلي والشيخ محمد الفاسي، فلم يعدد مناقب ممدوحيه من قوة وجاه، بل نراه يلح على الجانب المعنوي الخلقي الديني.[1]

ففي قصيدته الميمية الأولى التي افتتح بها شاعرنا عهده بالمدح الصوفي والتي نظمها عن شيخه وهي تتم عن استقبال متفائل برزت فيه رحابة الصوفية ورومانسيتهم حيث يقول:

أَهْلًا وَسَهْلًا بِالْحَبِيب اَلْقَادِمِ هَذَا اَلْنَهَارُ لَدَيَ خَيْرُ مَوَاسِمِ

جَاءَ اَلْسُرُورُ مُصَاحِبًا لِقُدُومِهِ وَانْزَاحَ مَا قَدْ كَانَ قَبْلَ مُلَازِمِي

أَفْدِيكَ بِالنَّفْسِ النَفِيسَة زَائِرًا مِنْ غَيْرِ ماَ مِنْ وَلْسْتُ بِنَادِمِ

طَالَتْ مُسَاءَلَتِي اَلْرِّكَابَ تَشَوُّقًا لِجَمَالِ رُؤْيَةِ وَجْهُكِ اَلمتَعَاظِمِ .

لقد بدا هذا الحب بين الأمير وشيخه الصوفي قبل لقائهما هذا، فأولى خيوط هذه المودة الأصرة بين الاثنين كانت معرفة سمعية، أي في علم اليقين حسب المصطلح الصوفي، ارتقت إلى عين اليقين حين اللقاء الأول، لتصبح محبة ملازمة، وهي أتاحت للأمير أن يفتح بابا يسميه "شعر الموائد"[2]، وساعدته في قطع الفراغ الرهيب الذي كان يعيشه في منفاه[3].

لَا غُرُورٌ أَنْ أَجَبْتُكُمْ مِنْ قَبْلِ مَا شَاهَدْتُكُمْ أَنْتُمْ جَمَالُ اَلْعَالَمِ [4]

كَانَتْ عَلَى سَمْعِي تَغَارُ نَوَاظِرِي حَتَى رَأَيْتُكِ أَنْتِ، أَنْتِ مَكْلَمِي

وَاَلْآنَ صِرْتُ مِنَ اَلْيَقِينِ بِحَقِهِ وَبِعَيْنِهِ أَنَّ اَلْسُرُورَ مُنَادِمِي .

ويسارع الشاعر للانتصاف لنفسه من نفسه في محبة هذا الأنيس الصالح، وكيف لا يحبه وهو يرى صورته مجسدة في هذا الشيخ، فضلا عن أن ممدوحه قريب الشبه من منزله قطب العارفين :"محي الدين بن عربي"، نال العلا وتبوأ منه في الفضل والجود ثم يدعو شاعرنا لشيخه:

---

[1]-عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر وأدبه،(د.ط) ،ص127.

[2]-محمد السيد الوزير: الأمير عبد القادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه، مكتبة الملك فيصل الإسلامية، 1984، ص180.

[3]-المرجع نفسه، ص180.

[4]-الأمير عبد القادر: الديوان،تح:ممدوح حقي،دار الكتاب العربي ،بيروت ،ط2 ،1964 ، ص85.

اِسْمِي قُطْبُ اَلْعَارِفِينْ لَكَ اَلْعُلَا مُتَبَوِئًا مِنْهُ أَجَلَ مَعَالِمِ
أَنْتَ اَلْذِّي فِي اَلْفَضْلِ أَصْبَحَ مُفْرَدًا لِعُلاَهِ مَا مِنْ مَدَعٍ وَمُزَاحِمِ
لَازِلْتُ مَيْمُونَ اَلْنَقِيبَة طَالِعًا بِالْسُعْدِ ذَا فَضْلٍ وَخُلْقٍ مَكَارِمِ .

وسنرى الأمير في قصيدته الموالية يقول "أجمل وأطول مدائحه"، وهو يمدح شيخه محمد بن سليمان الفاسي بجوار البيت الحرام .

يستهل الأمير رائيته بتصوير حالته النفسية بدقة بما فيها من صراع وقلق واضطراب فهو، لم يعرف للاطمئنان والراحة سببا، ولم يرى من حلاوة الدنيا إلا الجفن والهجران، فأيامه شقاء وحزن، ولياليه حائكة سوداء، فهل لهذا الليل من أديار، وهل للنور والضياء من أسفار، واعتاد الأسى والسهاد وانقطعت به سبل الصبر ينتظر الفرج المفقود بلقاء هذا الصوفي الزاهد[1].

أَمَسْعُودُ جَاءَ اَلْسُعْدُ وَاَلْخَيْرُ وَاَلْيُسْرُ وَوَلَتْ جُيُوُش الحِسِ لَيْسَ لهَا ذِكْرِ
نِيَالِيُ صُدُودٌ وَانْقِطَاعٌ وَجَفْوَةٌ وَبَجْرَاُن سَادَات فَلاَ ذِكْرُ الهِجْرِ
فِرَاَشِي فِيهَا حَسُودُ الهَمِ وَالضِلِ فَلاَ اَلْتَّذَلِي جَنْبٌ وَلَا اَلتَّذَلِي ظَهْرِ

وبعد أن يستطرد شاعرنا في وصف نفسيته البائسة وحالته الضنك قبل الفوز بلقاء هذا الشيخ، ليصل إلى الغرض الأساسي وهو مدح محمد الفاسي وتعداد خصاله وشمائله الإنسانية، فهو شيخ الأنام كلهم بلا منازع، فاستحق أن يتميز بمنزلة لا ينازعه فيها أحد، فاتخذه الأمير المثل والملاذ الأمين يحتمي به من ظروف الدهر، وتقلبات الزمن، بل أن الأمير كان يعتبر نفسه في تعداد الموتى، فأحيا الشيخ العظام وهي رميم وبعثت فيه الحياة من جديد فكتب له عمر آخر، وأي عمر؟ إنها حياة في كنف هذا الصالح، فالشيخ هو الشمس والغير كواكب، ومن يسوي الشمس بالأنجم الزهر؟[2]

وَأَعْنِي بِهِ شَيْخُ اَلْأَنَامِ وَشَيْخُ مَنْ لَهُ عَمُهُ فِي عَذْبِهِ وَلَهُ اَلْصَّدْرُ
عِيَاذِي مَلَاذِي عُمْدَتِي ثُمَ عَدْنِي وَكَهْفِي إِذَّا أَبْدَى نَوَاجِذَهُ اَلْدَّهْرُ
وَمُحْيِ رُفَاتِي بَعْدَ أَنْ كَانَتْ رُمَة وَأَكْسَبَنِي عُمْرُ اَلْعُمْرِي هُوَ اَلْعُمْرُ
مُحَمَدُ اَلْفَاسِي لَهُ مِنْ مُحَمَدُ هَنِيُ اَلإِلَهِ اَلحَالِ وَالْشَيِّمِ العُرُ

[1]–محمد السيد الوزير: الأمير عبد القادر ثقافته وأثرها في أدبه، ص 180.
[2]–الأمير عبد القادر: الديوان، ص187.

فهذه المناقب التي اختص الله بها هذا الصوفي، تغنيك عن الاستشهاد بغيرها فقد بلغت الكمال، فتفتحت أزهارها تصوغ عبيرها عن رائحة المسك والعطر .

شَمَائِلُهُ تُغْنِيكَ إِنْ رَمَتْ شَاهَدًا هِيَ اَلرَّوْضُ لَكِنَّ. شُقَ أَكْمَامُهُ اَلْقُطْرُ

تَصُوغُ طِيبًا كُلُ زَهْرٍ يَنْشُرُهُ فَمَا المِسْكُ؟مَا الْكَافوُرُ؟مَا اَلنَّدُ؟مَا اَلْعِطْرُ؟

ويمضي الأمير في تعداد فضائل أستاذه من كرم وحلم، فهو قد فاقهم في ذلك، فهو يريد أن يضع ممدوحه في درجة الكمال نهاية كل شيء .

ومَا حَاتِمُ؟ قُلْ لِي وَمَا حِلْمُ أَحْنَفِ وَمَا زُهْدُ إِبْرَاهِيمَ أَدْهَمُ؟ مَا اَلْصَّبْرُ؟

ولا يزال شاعرنا في مدحه لشيخه يعدد هذه المناقب المحببة للنفس، في جانب كنونه عفو، فهو كريم بشوش الوجه، طلق المحيا، بادي البسمة، رحب الصدر حليم، وتلك غاية المقصد ومنتهى الأمل[1].

هَشُوشٌ بَشُوشٌ يُلْقِي بِالْرُحْبِ قَاصِدًا وَعَنْ مِثْلِ حَبِ اَلمَزْنِ تَلْقَاهُ يَفْتُرُ

فَلاَ غَضَبٌ حَاشَا بِأَنْ يَسْتَفِزَهُ وَلاَ حِدَّةٌ كُلاَ وَلَا عِنْدَهُ ضَرٌ

وهدف الصوفي هو العمل على الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلا من أجل غاية محددة وهي إقرار الحق والعدل وإنصاف المظلوم .

وما هذه الفضائل إلا نعمة من الله من بها على هذا الشيخ والله حر يفعل ما يريد.

فَذَلِكَ فَضْلُ اَللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَا وَلَيْسَ عَلَى ذِي اَلْفَضْلِ حَصْرٌ وَلاَ حَجَرٌ

ويحاول الأمير أن يحقق في أستاذه درجة الكمال بهذه الصفات الكريمة التي يقف أمامها الغير عاجزا عن بلوغها بل وحتى وصفها .

فَهَذَّا كَمَالُ كُلِّ عَنْ وَصْفِ كَنْهِهِ فَمَنْ يَدَعِي هَذَّا، فَهَذَّا هُوَ اَلْسِر.ُ

ويصل به المطاف إلى موضوع الحكمة ليؤكد الأمير على أن ممدوحه أهلا لهذه الصفات الحميدة، وقد التزم كما نلاحظ في بداية كل بيت من أبياته حرف الميم كما هو الشأن عند شعراء الحكمة[2].

وَمَا كَلُّ شَهْمٍ يَدَعِي اَلْسِبْقَ صَادِقٌ إِذاً يَسِيقُ لِلْمَيْدَانِ بِأَنَّ لَهُ الخُسْرُ

وَعِنْدَ تَجَلِي اَلْنَّفْعَ يَظْهَرُ مَنْ عَلاَ عَلَىَ ظَهْرِ مُجَرَدٍ بَلْ وَمِنْ تَحْتِه حِمَرُ

فَمَا لِكُلِ طَيْرٍ طَارَ فِي اَلْجَوِ فاَتِكًا وَمَا كُلُ صَيَّاحٍ إِذَّا صَرْصَرَ اَلْصَّقْرُ

[1]-الأمير عبد القادر:الديوان، ص 188- 189.

[2]-عبد الرزاق بن السبع: عبد القادر وأدبه، ص 134.

وَمَا كُلُ مَنْ يُسَمَى بِشَيْخٍ كَمِثْلِهِ وَمَا كُلُ مَنْ يَدَعِي يُعَمِرُ وَأَذِنَ عَمْرُو.

ومراد الشاعر من هذا كله هو أن يبين أن هذا لم يكن مدعيا لهذه الصفات كذبا ونفاقا، بل أنها الحقيقة الكاملة .

2- الأبعاد الفنية في شعر الأمير عبد القادر:

2-1- اللغة الشعرية:

إن لغة الأدب تختلف عن لغة العلم ولغة الحياة اليومية اختلافا واضحا، ولهذا أولاها الدارسون أهمية كبيرة لمكانتها في العالم الأدبي، باعتبارها العنصر الأساسي في كل عم أدبي يستخدم الكلمة أداة للتعبير، ولهذا كان من أولويات الشعر، حسن استثمار خصائص اللغة لأنها مادة العمل الشعري، لأن الشاعر يعتمد على ما في قوة التعبير من إيحاء بالمعاني في لغته التصويرية، ومن هنا ذهب النقاد إلى اعتبار الشعر، استكشافا دائما لعالم الكلمة، واستكشافا دائما للوجود، والشاعر تعامل مع ذاته ومع الوجود، من خلال اللغة، ومن ثم فإن الشعر هو الوسيلة الوحيدة لغنى اللغة، وغنى الحياة على السواء، ولهذا تفاوت الشعراء وتمايزوا في تعاملهم معها، نظرا لأهميتها ودورها في الحكم على العمل الأدبي، ارتأينا أن نقف عند هذا الجانب في شعر الأمير، فشاعرنا كان معجبا بالنماذج العربية القديمة جعله يحتذي الأساليب البيانية المشهورة، فأغلب تراكيبه وألفاظه مستقاة من الموروث الشعري القديم كقوله :[1]

وَنَحْنُ سَقِينَا اَلْبِيضَ فِي كُلِ مَعْرَكٍ دِمَاءُ اَلْعَداَ وِ السُمْرُ أَسْعَرَتْ اَلْجَوَى

وَأَشْقَرٌ تَحْتِي كَلِمَتُهُ رِمَاحُهُمْ تَمَانِ ولَمْ يَشُكْ الجَّوَى بَلْ وَماَ التَّوَى

فأنت تلاحظ استعمال الأمير لهذه الألفاظ التي تنقلك مباشرة إلى عنترة أو أحد أبطال الجاهلية، فهو يتحدث عن البيض والسمر...

وفي عزله يرتد الأمير إلى هذا القاموس الجاهز يسعفه بألفاظه وتراكيبه الجاهزة في بناء أبياته، كأننا أمام عاشق بدوي سيعرض أمام محبوبته شجاعته وبطولته .

وِمِنْ عَجَبِ صَبْرِي لِكُلِّ كَرِيهَةٍ وَحَمْلِي أَثْقَالًا لاَ تَحِلُ عَنِ الْغَدِ .

وَلَسْتُ أَهَابُ اَلْبِيضَّ كُلَا، وَلاَ اَلنَقاَ بِيَوْمٍ تَصِيرُ الهِمَامُ لِلْبِيضِ كَالْغِمْدِ .

وَقَدْ كَلَفَنِيَ الْلَّيْلُ أَرْعَى نُجُومَهُ إِذَّا نَامَهُ الْمُرْتاَعُ، بِالْبُعْدِ واَلْصَّدِ .

[1]- الأمير عبد القادر : الديوان، ص45.

إن الأمير في هذه الأبيات قد ابتعد عن لغة عصره كل الابتعاد، فجاءت ألفاظه لذلك مشتملة على مفردات معقدة أو غريبة، مما يلجئ القارئ للعودة الى القواميس والمعاجم بحثا عن معنى هذه اللفظة .

ثم نتأمل هذه الأبيات التي يصور لنا فيها حاله وما يقاسيه من عذاب البعد والفراق[1]:

لَمْ يَبْقَ يَوْمُ اَلبَيْنِ وَاَلهَجْرُ اَلْذِّي خُلِقَا لِتَعْذِيبِ اَلأَحِبَةِ مُسْعِفًا

إِلاَّ صَبَابَتُهُ وَحَسْبَمَا قَدْ غَدَا مُلْقَى كَشَنِ بِالْقَلاَ لَنْ يَخْصُفَا

مَا إِنْ تَأَلَفَ بَرْقٌ سَلَعَ وَاَلْحُمَّى حَتَّى تَفِيَض اَلْنَّفْسَ مِنْهُ تَأَسُفًا

إن الشاعر لم ينس الشعراء الأقدمين في ذكر أماكن معلومة، واستعمال ألفاظ قوية ترقى فوق مستوى عصره كالبين، والشن، وهي مستقاة من موروثه اللغوي .

فعبد القادر من خلال نماذجه كثير في شعره قد خرج عن المعجم الشعري الذي كان مستعملا في عصره ولم يساير مرحلته، وربما دافعه في ذلك الارتفاع عن المستوى العام باستعمال لغة قوية راقية مستقاة من تراثنا العربي الأصيل.

ويبتعد الأمير أحيانا عن اللغة الشعرية بنزعته المباشرة التقريرية التي لا تلمس فيها أية ملامح فنية يقول:

وَأَشْكُرُ اَللَّهَ إِذَّا لَمْ يَنْصَرِمْ أَجَلِي حَتَّى وَصَلَتْ بِأَهْلِ اَلْدِينِ إِيصَالًا

وَامْتَدَ عُمْرِي إِلَّى أَنْ نِلْتُ مِنْ سَنَدِي خَلِيفَةُ اللَّهِ أَفْيَاءٌ وَأَظْلاَلاً

وَعِشْ هَنِيئًا فَأَنْتَ اَلْيَوْمَ أَمِنٌ مِنْ حِمَامِ مَكَةَ إَحْرَامًا وَإِحْلاَلاً .

فاللغة المستخدمة في هذه الأبيات لا تثير فينا أي إحساس، لأن ألفاظها وتراكيبها تفتقد التصوير والإيحاء اللذان من أسس اللغة الشعرية، وقد كان في إمكان الشاعر أن يشع بعض الجمال في تضاعيف لغته باستخدامه المحسنات المعنوية، لكنه فضل عليها المحسنات اللفظية .

ومن ذلك قوله أيضا، يتشوق إلى ابنه[2]:

اِبْنِي لَئِنْ دَعَاكَ اَلْشَّوْقُ يَوْمًا وَحَنَتْ لِلِقَائِنَا اَلْقُلُوبُ .

وَرَمَتْ بِأَنْ تَنَالَ مِنِي وَوَصْلًا يَصِحُ بِعَبْدِهِ اَلْقَلْبُ اَلْكَئِيبُ .

فَإِنِّي مِنْكَ أَوْلَى بِاشْتِيَاقِ وَنَارِي فِي اَلْفُؤَادِ لَهَا لَهِيبُ .

فهذه الأبيات من الشعر الذاتي نزلت بها النزعة التقريرية لتصبح اللغة أقرب إلى النثر منها إلى الشعر .

[1]-الأمير عبد القادر:الديوان، ص 163.

[2]-المرجع نفسه، ص 92.

وما يثير الدهشة والحيرة، أن الشاعر ينحدر بمستوى لغته من كلمات يحتار المتلقي في إيجاد معانيها يقول:

وَمَادِحُ شَرْطِ اَلْخَدِ فِي اَلْسُودِ صَادِقٌ وَأَمَّا بِخَدِ اَلْبِيضِ فَالْقُبْحُ عُمْدَتِي

وفي عصر الأمير كثرت الحاجة إلى التملؤ وتذوق المفردات للاستمتاع بالسياق في إعدادها ودلالاتها وأنواعها، مما يدل على لغوية الشاعر عن نحويته وبلاغته .

ففي أن تذكر اللفظة ثم تكرره والمعنى مختلف وقد تأتي للأمير أن ينظم ثمانية عشر بيتا كل بيت يحمل معنى مختلف لكلمة "خال" مما يدل على تبحره اللغوي يقول[1]:

خَلِيلِي وَافَتْ مِنْكُمْ ذَاتَ خَلْخَالٍ تَتِيهُ عَلَى شَمْسِ اَلظَّهِيرَةِ بِالْخَالِ.

تَمْشِي فَتُزْرِي بَالْغُصُونِ تَمَايُلاً تَرُوحُ وَتَغْدُو فِي بُرُودِ مِنَ اَلْخَالِ .

لَهَا مَنْطِقٌ حُلْوٌ بِهِ سِحْرُ بَابِلِ رَخِيمُ اَلْحَوَاشِي وَهُوَ أَمْضَى مِنَ اَلْخَالِ .

ولم تسلم لغة الشاعر من الركاكة والضعف والضرورات الثقيلة في مثل قوله:

يَا رَبِ أَيْدِ بِرُوحِ اَلْقُدْسِ مَلْجَانَا عَبْدُ اَلمجِيدِ وَلاَ تُبْقِيهِ حِيرَانَا .

أَحْيَّا اَلجِهَادَ لَنَا مِنْ بَعْدِ مَا دَرَسَتْ وَضَاعَفَ اَلْمَالَ ، أَنْوَاعًا وَأَلْوَانًا .

ففي قوله لاتبقيه استخدم لا الناهية ولم يجزم الفعل المضارع بعدها، كما أنه استخدم في البيت الثاني كلمة درست وحذف فاعلها للإيجاز وتقدير الكلام وهذا الحذف ثقيل .

2-2- الصورة الشعرية :

يقول "رسكين" :"كل من الشاعر والمصور يلتقط كل ما أرى وما سمع طول حياته ولا يفوتهما منظر حتى ولو كان أدق طيات الملابس، أو حفيف أوراق الشجر، ثم يخزنانها ثم يهيج الخيال فيستخرج منها صور وأراء متناسبة متسقة في الأوقات الملائمة"[2].

ونظرا لأهمية الصور في العمل الأدبي الشعري كانت محط عناية واهتمام الباحثين قدامى ومحدثين .

فمن التعريفات التي أوردتها دائرة المعارف لاروس عن الصورة الأدبية "أنها أسلوب يجعل الفكرة تبرز بكيفية أكثر حساسية وأكثر شاعرية تمنح الشيء الموصوف أو المتكلم عنه أشكالا وملامح مستعارة من أشياء أخرى تكون مع الشيء الموصوف علاقات التشابه والتقارب من أي وجه من الوجوه"[3]

[1]-الأمير عبد القادر :الديوان، ص 69.

[2]-المرجع نفسه، ص 80.

[3] - Grand larousse encyclopédique t 6 image Paris- 1960.

الصورة تشكيل لغوي، يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة، يقف العالم المحسوس في مقدمتها، فأغلب الصور مستمدة من الحواس .

إن شاعرنا له مقدرته على الإبداع والابتكار في هذا ونعني به تشكيل الصور، وصوره الشعرية من الناحية التشكيلية لا تختلف كثيرا عن صورة القدامى فأغلبها تشبيهات واستعارات، والصور عند الأمير كانت غايتها الوصول إلى الحقيقة، وسنتين ذلك من خلال بعض النماذج، ففي قصيدته "بين البدو والخصر" يصور فيها الشاعر جمال الصحراء يقول[1]:

أَوْ كُنْتَ أَصْبَحْتَ فِي اَلْصَحْرَاءِ مُرْتَقِيًا بِسَاطَ رَمْلٍ بِهِ اَلْحَصْبَاءُ كَالْدُرَرِ.

أُوجِلْتُ فِي رَوْضَةٍ قَدْ رَاقَ مَنْظَرُهَا بِكُلِ لَوْنٍ جَمِيلٍ شَيِّقٍ عَطِرٍ

أَنْعَامُنَا إِنْ أَتَتْ عِنْدَ اَلْعِشِي تَحِلُ أَصْوَاتُهَا كَدَوِي اَلْرَعْدِ بِالْسُحْرِ

ويمضي الشاعر على نفس المنوال في إيراد صوره الحسية وذلك في قصيدته "جنات دهر" فهو يريد أن يضع صورا مجرد جامدة كون جزئياتها من موروث سابق يقول في وصف الطبيعة[2] .

عَجَبِي فَدَيْتُكَ فِي أَبَاطِحِ دَمْرِ ذَاتِ اَلْرِيَاضِ اَلْزَهَرَاتِ اَلنُضُرِ

ذَاتُ اَلْمِيَاهِ اَلْجَارِيَاتِ عَلَى اَلْصَفَا فَكَأَنَهَا مِنْ مَاءِ نَهْرِ اَلْكَوْثَرِ

فهذه النزعة الحسية في التصوير والوقوف عند حدود الشكل للصور والاهتمام المنصب على المظهر الخارجي، جعل الصورة موسومة بالجفاف والجمود، لذلك لا نجد في الأبيات إلا حشدا من المشاهد الطبيعية العادية التي لم تثر فينا أدنى إحساس .

وللأمير قصائد ومقطوعات ينحو فيها منحى مغايرا، فنراه يذيب ذاته مع الشيء الموصوف، فيسقط عليه مشاعره وأحاسيسه وهذا ما نلاحظه في "الناعورة العاشقة" يقول:

وَنَاعُورَةٌ نَاشَدْتُهَا عَنْ حَنِينِهَا حَنِينُ اَلحِوَارِ وَالْدُمُوعُ تَسِيلُ

فَقَالَتْ وَأَبْدَتْ غَدْرَهَا بِمَقَالِهَا وَالْصَدْقُ آيَاتٌ عَلَيْهِ دَلِيلُ

وَحَالِي كَحَالِ اَلْعِشْقِ بَاتُ مُحَالِفًا يَدُورُ بِدَارِ اَلْحُبِ وَهُوَ ذَلِيلُ

ومن الصور الشعرية في بقية أغراض الديوان، فإننا نجد الأمير يجيد تارة ويسف أخرى، ففي شعره الغزلي، نجد شاعرنا متأثر في تشكيل صوره بالقدامى يقول[1]:

[1]-الأمير عبد القادر: الديوان، ص 35- 36.

[2]-المرجع نفسه، ص 182- 183.

هَيْفَاءُ يَبْدُو لَنَا مِنْ وَجْهِهَا قَمَرٌ مِنْ سُحُبٍ فاَحْمِهَا بَانَتْ بِتَلْوِينِ .

تَرْمِي بِألَحَاظِهَا عَنْ قَوْسِ حَاجِبِهَا تَصِيبِنِي ثُمَ تَسْبِينِي وَتَكْوِينِي .

ويستمد الأمير أو يقتبس آيات من القرآن بنصها الكامل في تشكيل صوره الشعرية، فهو يتحدث عن الخمر الإلهية وأهلها من الصوفية يقول:

فَنَحْنُ بِضَوْءِ الَشَّمْسِ وَالْغَيْرُ فِي دَحَى وَأَعْيُنُهُمْ عُمْيٌ وَأَذَانُهُمْ وَقْرٌ

وَلاَ غُرُورٌ فِي هَذَا، وَقَدْ قَالَ رَبُنَا تَرَاهُمْ عُيُونٌ يَنْظُرُونَ، وَلَا بَصَرٌ

فالصورة في البيتين استيحاء صريح واضح من سورة الأعراف الآية 178، وقد حفل شعره الصوفي بصورة شعرية ترقى للمستوى، ويرجع ذلك إلى صدق معايشة الشاعر لتجاربه، واعتماد الشعر الصوفي على كثرة الإيحاءات والرموز والإشارة، وقد تميز شعراء الصوفية بالتعبير الرمزي الذي يوحي بالفكرة ولا يصرح بها، فالشعر الصوفي أقرب إلى الرومانسية حيث الهيام والجد والحب .

ففي قصيدته " مسكين لم يذق طعم الهوى" التي يصف فيها عشقه بالصوفية:

عَرَفْتُ فِي حُبِهِمْ دَهْرٌ أَلَمْ تَرَنِي فِي بَحْرِهِمْ سُفُنٌ حَقاً وَمَلاَحُ

مَاذَا عَلَى مْن رَأَى يَوْمًا جَمَالَهُمْ أَنَ لَيْسَ بِتَدَوُلِهِ شَمْسٌ واَصِيَاحُ .

2-3- الموسيقى:

الموسيقى في الشعر تمثل ركيزة هامة فيه، إلى جانب الأخلية والصور، فهي ليست تطريبا فحسب بل هي وسيلة من وسائل التعبير والإيحاء، وللموسيقى نوعان:

أ- الموسيقى الخارجية: وهي حافظت على القصيدة العمودية من وزن وقافية ونهجه سنن الأقدمين في بناء موسيقى شعره، فقد كان الموروث له القدوة والنموذج الأمثل.

ففي ديوانه كان ترتيب البحور الشعرية من ناحية استخدامها في قصائد ومقطوعاته مرتبة كالآتي: الطويل بثلاثين قصيدة ومقطوعة، والبسيط بعشرة قصائد، والكامل بتسعة والوافر بثمانية والرمل والمتقارب باثنان .

وفي قصيدته الغزلية "فراقك نار" من بحر الطويل التي يتغزل فيها "بأم البنين" ويتشوق إليها، فيصور حالته البائسة التي تفوح حزنا وألما مع إيقاع هذا البحر يقول[2]

أَقُولُ لِمحْبُوبٍ تَخَلَفَ مِنْ بَعْدِي عَلِيلًا بَأَوْجَاعِ الْفُرَاقِ وَبِالْبُعْدِ .

[1]-الأمير عبد القادر:الديوان، ص112- 113.

[2]-المرجع نفسه، ص63.

أَمَّا أَنْتَ حَقًّا لَوْ رَأَيْتَ صَبَابَتِي لَهَانَ عَلَيْكَ اَلْمُرُ مِنْ شِدَةِ اَلْوَجَدِ .

أما الوافر فيحتل المرتبة الثانية، فهو يتميز إيقاعه بالحركة والتدفق ورنة قوية ملائمة لروح الفخر والحماسة .

وينعزل الأمير فيصف لنا حاله وهو يهيم على وجهه في كل مكان بحثا عن حبيب القلب بعد أن أفناه الوجد يقول[1]:

أَلاَ قُلْ لِلَّتِي سَلَبَتْ فُؤَادِي وَأَبْقَتْنِي أَهِيمُ فِي كُلِ وَادٍ .

تَرَكْتُ اَلْصِّبَا مُلْتَهِبًا حَشَاهُ حَلِيفٌ شَجِيٌ يَجُوبُ بِكُلِ نَادٍ .

أما البسيط فقد جاء ثالث البحور فطرق من خلاله أغراض الفخر والتصوف وغيره ومن قوله يصف جمال البادية يقول[2]:

لَوْ كُنْتَ تَعْلَمْ مَا فِي اَلْبَدْوِ تَعْذُرُنِي لَكِنْ جَهِلْتَ وَكَمْ فِي اَلْجَهْلِ مِنْ ضَرَرٍ.

أما الكامل فقد اتسم بطابع الجد وهو بعيد على الهدوء والتأمل، وينسجم مع العاطفة القوية والنشاط والحركة، سواء كانت فرحة قوية أم حزنا شديدا .

اَلْنَّازِلُونَ بِكُلِ ضَنَكٍ ضِيقٍ رَغْمًا عَلَى اَلْأَعْدَا بِغَيْرِ تَهَوُلِ

ولم يخل شعر الأمير من بعض عيوب الوزن كالزحافات واضطرابات الأوزان كقصيدته في التصوف يقول فيها:

أَوْقَاتٌ وَصَلَكُمْ عِيدٌ وَأَفْرَاحٌ يَا مَنْ هُمْ اَلْرُوحُ لِي وَاَلْرُوحُ والَرَاحُ .

وقوله كذلك[3]:

فَإِنْ رَضِيتُ عَلَيَا أَرَدْتُ مَحْيَا بَشُوشًا بِالْمَلاَحَةِ ظِّلُ بَادِ .

فحق كلمة باد النصب لأنها (خبر لظَّل)، ولكنه أوردها هكذا ليستقيم الوزن.

ب– الموسيقى الداخلية: وترتبط بالحالة الشعورية للشاعر، وانفعاله، ومن ثم فإن تكرار الشاعر مثلا لحرف بعينه قد يكون له مغزى نفسي.

يقول الأمير[4]:

أَبَى اَلْقَلْبُ أَنْ يَنْسَى اَلمَعَاهِدَ مِنْ بَرْسَا وَحُبِي لَهَا بَيْنَ اَلْجَوَانِحَ قَدْ أَرْسَى

[1]–الأمير عبد القادر :الديوان ،ص 35– 36.

[2]–المرجع نفسه، ص 202.

[3]–الأمير عبد القادر :الديوان ، ص 60.

[4]–المرجع نفسه، ص 157– 158.

أُكَلِفُهُ سِلْوَانَهَا وَهُوَ مُغْرَمُ فَهَيْهَاتَ أَنْ تَسْلُو وَهَيْهَاتَ أَنْ يَنْسَى

فاستعمال الأمير "لحرف السين" وهو من حروف الصغير التي تنسل هاربة من بين الأسنان، وهذه الظاهرة الصوتية تحدث لمن يحسون بجهد وإرهاق نفسي، وقد كان شاعرنا في حالة سيئة، فكان حرف السين ملائما لهذا الانكسار النفسي الذي يعيشه .

وهذه أبيات أنشدها منعزلا يصف فيها جمال محبوبته[1].

تَمِيسُ كَالْغُصْنِ إِذَا مَرَ اَلْشَمَالَ بِهِ أَوْ شَارِبٌ ثَمِلٌ مِنْ خَمْرِ دَارِينَ.

إلى أن يقول[2]:

وَقَدْ بَدَتْ لِي طُلُوعُ اَلْشَّمْسِ مُسْفَرَةٌ فَطَالَ تَرْدَادُ عَيْنِي بَيْنَ شَمْسَيْنِ .

فالشاعر يبدو فرحا منتشيا بهذا الحبيب الذي ملك فؤاده بجماله الفتان، فأراد أن يعبر عن هذا الإحساس بعبارات خفيفة معبرة .

[1]-الأمير عبد القادر :الديوان ، ص 111.

[2]-المرجع نفسه، ص 112.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية ،تح: عبد الحليم محمود، محمود الشريف، دار الشعب ،القاهرة(د.ط).
2. أبو نصر سراج الطوسي: اللمع،تح:عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة،مصر،1380هـ.
3. أبو العلا عفيفي: التصوف الثورة الروحية،(دون معلومات النشر).
4. أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي: العزلة، تح: محمد السواس، دار ابن كثير، بيروت– لبنان، ط2، 1990.
5. أحمد تيمور: أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث،(دون معلومات النشر) .
6. أحمد توفيق عياد: التصوف الإسلامي تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره ،الأنجلو المصرية .القاهرة ،(د.ط) ،1970م.
7. ابن القيم: مدارج السالكين، تح: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي. بيروت، ط2، 1393هـ.
8. ابن الجوزي: تلبيس إبليس، تح : أحمد بن عثمان المزيد، دار الوطن،الرياض، ط1، 1423هـ.
9. ابن تيمة:مجموع الفتاوى،ج 11 ،(دون معلومات النشر).
10. ابن الجوزي: تلبيس ابليس، تح: السيد الجميلي، دار الكتاب العربي. بيروت، ط1 ،1405.
11. ابن خلدون: شفاء السائل وتهذيب المسائل، تح: محمد مطيع الحافظ، دار الفكر،دمشق ، ط1 ،1417هـ.
12. ابن خلدون: شفاء السائل لتهذيب المسائل، تح: الأب غناطيوس عبده، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ،1959.
13. ابن خلدون : المقدمة،دار الشعب.مصر ،(د.ط.ت) .
14. ابن كثير: البداية والنهاية، تح: علي شبري، دار أحياء التراث العربي، ط1. (1408هـ.
15. ابن كثير : البداية والنهاية، تح :علي شبري، دار إحياء التراث العربي، ط1،(د.ت).
16. إبراهيم الدسوقي شتا: التصوف عند الفرس، كلية آداب القاهرة، دار المعارف.
17. إحسان حقي: الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد، بيروت سنة 1961.

18. الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتاب العلمي،بيروت، ط1، 1413هـ.
19. السهر وردي: عوارف المعارف، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1403هـ .
20. الشعراني: الطبقات الكبرى، تح : خليل المنصور، دار الكتب العلمية ،بيروت،(د.ط)،1997.
21. الأمير عبد القادر: الديوان،تح :ممدوح حقي،بيروت، ط1،1964.
22. البغدادي: هدية العارفين، ، طهران ،ط3،م1،ج1،1967م.
23. السندوبي: أعيان البيان، مصر ،ط 1919 م .
24. الغزالي: مشكاة الأنوار،تح:أبو العلا عفيفي ،الدار القومية .مصر ،(د.ط) ،1964م .
25. الغزالي: المنقذ من الضلال، دار الكتب الحديثة. مصر،ط6 ،1388
26. الغزالي: أحياء علوم الدين، تح:بدوي طبانة ،ج1،1957م .
27. بركات محمد مراد: الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي، (دون معلومات النشر).
28. جرجس زيدان: تراجم مشاهير الشرق، ط2. مصر 1910، ج1.
29. جواد مرابط: التصوف والأمير عبد القادر،دار اليقظة العربية ،دمشق ،(د.ط) ،1966م.
30. زروق المغربي: قواعد التصوف،(دون معلومات النشر).
31. شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي، م 1، ج2،(دون معلومات النشر).
32. عبد الحكيم عبد الغني قاسم: المذاهب الصوفية ومدارسها، مكتبة مدبولي ،القاهرة، ط2 ،1999.
33. عرفان عبد الحميد فتاح: أبو يزيد البسطامي وفكرة الفناء في نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل. بيروت، ط1 ،1413هـ.
34. غولد سيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام،(دون معلومات النشر).
35. عاطف العراقي: ثورة العقل في الفلسفة العربية، ط31976،.
36. عبد الرزاق بن السبع: عبد القادر وأدبه،(د.ط) .
37. علي صافي حسين: الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري،(د.ط) .
38. فيصل بدير عون: التصوف الإسلامي، القاهرة ،(د.ط)، 1983.
39. فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا، الجزائر، 1985.
40. محمد بن أحمد الجوير: الردود العلمية في دحض حجج وأباطيل الصوفية، مكتبة الرشد ،(د.ط)،1424هـ

41. محمد السيد الوزير: الأمير عبد القادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه، مكتبة الملك فيصل الاسلامية،(د.ط)،1984 ..
42. محمد بن الأمير :تحفة الزائر،تح :ممدوح حقي ،بيروت،ط 2، عام 1964،.
43. محمد السيد محمد علي الوزيري: الأمير عبد القادر ثقافته، الجزائر عام 1986
44. محمد ناصر: منتخبات من شعر الأمير عبد القادر،(دون معلومات النشر).
45. نيكلسون: الصوفية في الإسلام، تر: نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي ،مصر،(د.ط)،1951.
46. وفيق سليطين: الشعر الصوفي بين مفهومي الانفصال والتوحد، دار الرأي للنشر والتوزيع، دمشق،(د.ط)،2007
47. Grand larousse encyclopedique t 6 image Paris- 1960.

المجلات

1. أبو العلا عفيفي: التصوف في مجال المعرفة، مجلة المجلة،القاهرة ، ع104، 1965
2. كريم ثابت: الأمير عبد القادر، مجلة الهلال،القاهرة ، مج 41، ج8.
3. رابح بونار: الأمير عبد القادر حياته وأدبه، مجلة أمال الجزائرية، العدد8.

الخاتمة

بعد أن شارفت دراستي المتواضعة على الانتهاء حول النزعة الصوفية في الشعر العربي الحديث الذي اتخذت من الأمير عبد القادر نموذجا ،وقبل طي صفحات هذا بحث لا بد من التطرق إلى أهم النتائج التي استنتجتها خلال بحثي ويمكن إجمالها فيما يلي :

1. وجدت أن التصوف لما فيه من موافقة اللغة، أنه يوافق حال القوم الأوائل من التقشف والزهد والانقطاع عن الدنيا، وهو استرسال النفس مع الله تعالى، على ما يريد، وهو عزوف النفس، وترك الأوطان، ولزوم الأسفار، وصفوة الأسرار، وانشراح الصدور .
2. لقد تنوع التصوف بين: تصوف سني فأصحاب هذا الاتجاه كان الالتزام بالنسبة هو ضابطهم ،وتصوف فلسفي فأصبح بعض المتصوفة يهتمون بعلوم المكاشفة التماسا لمعرفة الله، واكتساب علومه .
3. إن التصوف في نظر الأمير عبد القادر هو صدق التوجه إلى الله بما يرضاه من حيث يرضاه، ومن أسباب انخراطه في التصوف تربيته الدينية الصوفية، فقد شب الأمير في جو تربوي ديني، وطريقه الصوفي هو طريق ديني قلبي، وليس طريقا فلسفيا عقليا، يعتمد على رياضة النفس ومجاهدتها .
4. تعتبر المقامات والأحوال هي الدرجات والرتب التي يترقى فيها السالك بعد أن يكون قد سار شوطا طويلا في مجاهدة نفسه ورياضتها ويتجلى بكل الآداب العامة والخاصة.
5. إن الكيفية التي ينقل بها الصوفية تجربتهم الى غيرهم ،فكانت اللغة باعتبارها العنصر الأساسي في كل عمل إبداعي يستخدم الكلمة أداة للتعبير،ولهدا تفاوت الشعراء وتمايزوا في تعاملهم مع اللغة،فكان الأمير يحتذي الأساليب البيانية،فاقتصر على التراكيب الجاهزة،ومرد ذلك اعتزازه بتراثه الأصيل.
6. استخدم تراكيب متنوعة من أجداده العرب،فالأمير ابتعد عن لغة عصره كل الابتعاد،فجاءت ألفاظه تشتمل على مفردات غريبة،مما يلجئ القارئ أحيانا للعودة إلى القواميس،فعبد القادر كثير في شعره خرج عن المعجم الشعري،وربما دفعه في دلك الارتقاء عن المستوى العام باستعمال لغة قوية راقية منتقاة من التراث العربي الأصيل،وابتعد عن اللغة الشعرية بنزعته التقريرية التي لا تلمس أية ملامح فنية،لأن ألفاظها وتراكيبها تفتقد التصوير،ولم تسلم لغة الشعر عنده من الركاكة والضعف .

7. أما الصورة عند الشاعر فهي تشكيل لغوي،يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة،فأغلب الصور مستمدة من الحواس،فالخيال عنصر هام في مجال تكوين وتشكيل الصور،فالشاعر مهما أجاد اللغة والموسيقى فصوره لن تستطيع أن تنهض بدون الخيال حتى وان برزت في العمل الإبداعي فهي باهتة مبتذلة ،لأن الخيال موهبة تنفد بروح الأديب إلى أسرار الوجود،فصور الأمير الشعرية من الناحية الشكلية لا تختلف كثيرا عن صورة القدامى فأغلبها تشبيهات واستعارات،فالصور عنده كانت غايتها الوصول إلى الحقيقة،ولتوضيح الفكرة،فالأمير لم يوظف ملكة الخيال توظيفا جيدا لأنه اعتمد على الموروث القديم،فكان يصف جمال الصحراء والبادية،فكان بعيدا عن الإحساس النفسي والشعور الفياض،همه الوحيد رصد الصور خارجيا .

8. أما الموسيقى في الشعر تمثل ركيزة هامة ،فهي ليست تطريبا بل هي وسيلة من وسائل التعبير والإيحاء،وما يلفت الانتباه أن الأمير حافظ على القصيدة العمودية،من وزن وقافية ،والقصيدة الواحدة عنده تشتمل على أكثر من غرض ،فكان البحر الطويل من البحور التي تصلح لغالبية الموضوعات،ولم يخل شعره من بعض عيوب الوزن كالزحافات واضطراب الأوزان كقصيدته في التصوف "مسكين لم يذق طعم الهوى"التي اختل فيها الوزن كثيرا.

وأخيرا نأمل أن نكون قد لامسنا ظاهرة التصوف في الشعر العربي ،ولا يزال الموضوع في رأينا يحتاج إلى بحث أوسع وأعمق .

ملحق

-الكلاباذي:أبو بكر محمد بن إبراهيم الكلاباذي البخاري ،من حفاظ الحديث،توفي سنة380هـ.

-السهر وردي :شهاب الدين أبو حفص وأبو عبد الله عمر بن محمد بن عد ي :أحمد بن محمد النوري البغدادي المولد والمنشأ .

-الجنيد :الجنيد بن الله القرشي التيمي ،البغدادي .

-عمرو بن عثمان المكي :أبو عبد الله عمرو بن عثمان ابن كرب المكي ،وروى الحديث ،وهو عالم بعلم الأصول .

-أبو حسين النور

بن محمد بن الجنيد الناوندي ،ثم البغدادي ،كان والده شيخ الصوفية

-أبو علي الدقاق :الحسن بن علي الدقاق الزاهد .

-القشيري :أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري ،الخيرساني النيسابوري

-عبد الواحد بن زيد :أبو عبيدة الزاهد شيخ العباد البصري ،توفي سنة 150.هـ .

-عبد الحليم محمود :تقلد عدة مناصب من أهمها :رئيس قسم علم النفس بجامعة الأزهر ،توفي سنة 1398 هـ

.

-معروف الكرخي :أبو محفوظ بن فيروز الكرخي ،يلقب بالزاهد ،مات ودفن ببغداد

-أبو حفص :عمرو بن سلمة النيسابوري ،من كبار الصوفية ،توفي سنة 207 هـ ..

-أبو إسحاق ابراهيم بن أدهم :من أهل البلخ ،كان من أبناء الملوك ،توفي 161 هـ .

-أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي :خرساني المنشأ ،زاهد مشهور ،توفي سنة 187 هـ .

-أبو الحسن سري بن المفلس السقطي :أول من تكلم ببغداد في لسان التوحيد ،توفي سنة 251 هـ .

عبد القادر الجيلي :عبد القادر بن موسى بن عبد الله ،الصوفي الزاهد الواعظ ،توفي سنة 561 هـ .

-أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي :من علماء مشايخ الصوفية ،وله كتب مشهورة من أشهرها :الرعاية لحقوق الله ،مات ببغداد سنة 243 هـ .

-أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز البغدادي :من الصوفية وجلة مشايخهم ،أول من تكلم عن الفناء والبقاء ،توفي سنة 279 هـ

-أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن الترمذي :من كبار مشايخ الصوفية بخراسان ،توفي سنة 319 هـ .

- أبو طالب المكي :محمد بنعلي بن عطية الحارثي العجمي ،توفي سنة 386 هـ .

-الهجويري :أبو الحسين علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي ،من أعلام الصوفية في القرن الخامس الهجري ،توفي سنة 495 هـ .

-ابن سبعين :أبو محمد عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر الاشبيلي ،من زهاد الفلاسفة ،أقام بمكة ومات بها منتحرا توفي سنة 669 هـ

-أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي :من أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري ،يلقب" بسلطان العارفين"،توفي سنة 261 هـ .

-أبو عبدالله حسين بن منصور الحلاج: (858 هـ-922 م/244 هـ-309 م) من أعلام الصوفية ،توفي مقتولا.

ملخص

تتناول هذه الرسالة النزعة الصوفية في الشعر العربي الحديث حيث شكلت هذه الظاهرة ميزة غلبت على معظم القصائد المنتجة مع تنوع في التجربة والتوظيف، كما كانت دافعا فريدا وسم الإنتاج العربي ،الذي كان زاخرا بالتجارب الذوقية والروحية السامية ومتميزا بالطابع العربي الخاص ،فقد كان للوقائع التاريخية والسياسية أثر بارز في تشكيل هذه الظاهرة

الكلمات المفتاحية : التصوف، الشعر الصوفي ،التجربة الذوقية .

Résumé

Cette thèse traite Tendance mystiques dans la poésie soufie arabe modern – ce phénomène a forme une caractéristique sur plusieurs poèmes produits avec une diversité dans l'expérience et l'emploi. Elle a aussi été un motif psychique et unique . qui a marqué la production poétique soufie modern qui était remplie d'expériences de goût et spirituelles dinsi caractérisée par la nature spécifique moderne des faits historiques ont connu un impact significatif dans la formation de ce phénomène .

MoTS Clé :SOUFIE ,POEME SOUFIE ,EXPERIENCE GOUT .